ABED A. AL-RAWDAN

عبد عون الروضان

رواية

زائية الوجد

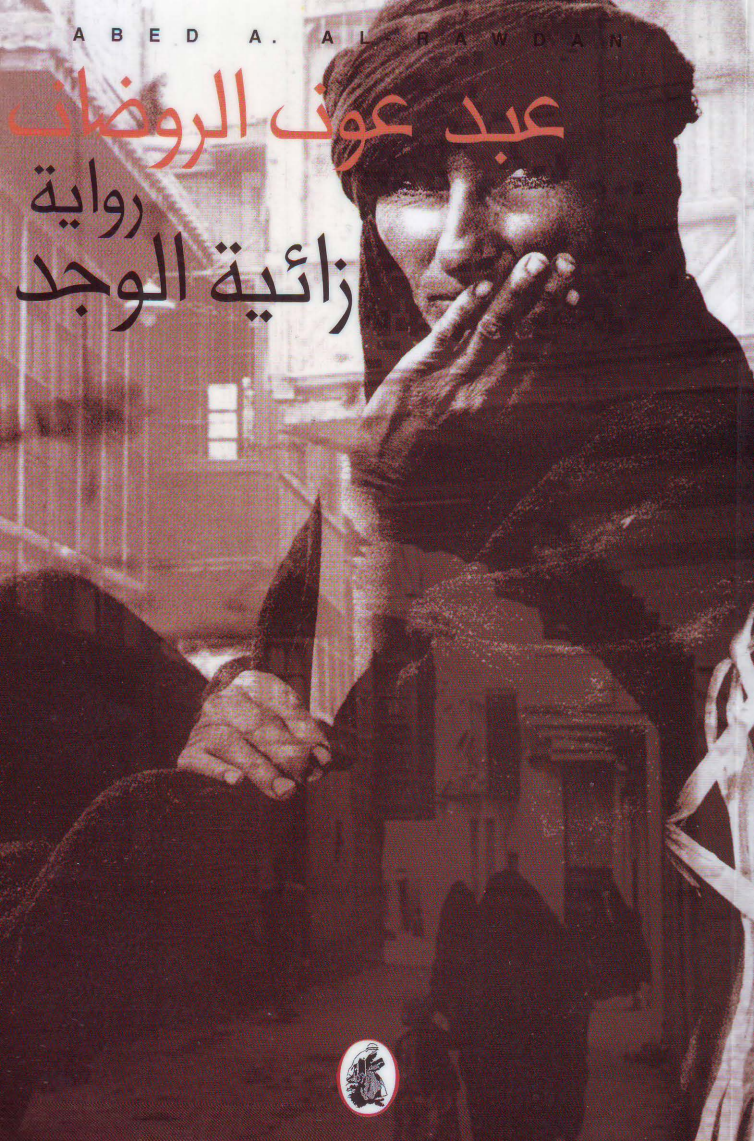

زائية الوجد / رواية
عبد عون الروضان / مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عبد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف :
رافع الناصري

الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
المطابع المركزيّة / عمّان ، الأردن

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 9953-36-616-0

عبد عون الروضان

زائية الوجد

عبد عون الروضان

العمارة – محافظة ميسان – جمهورية العراق

بكالوريوس لغة فرنسية – كلية اللغات – جامعة بغداد

أولاً : القصة والرواية

١– بيت في مواجهة الشمس/ قصص ،بغداد ١٩٧٦

٢– المدارات/ قصص ،بغداد ١٩٧٩

٣– ربيع في صيف ساخن/ رواية، بغداد ١٩٨١

٤– رجل في ذاكرة الرجال/ رواية ،بغداد ١٩٨٤

٥– النجوم لا ترحل بعيداً/ قصص ،بغداد ١٩٨٧

٦– مرايا متقابلة/ قصص ،بغداد ١٩٩٢ ،جائزة الابداع ١٩٩٧

٧– قفص من فضاء/ قصص، بغداد ٢٠٠٠

ثانياً : الموسوعات

١– موسوعة شعراء العصر الجاهلي، عمان ١٩٩٩

٢– موسوعة شعراء صدر الإسلام والأموي،عمان ١٩٩٩

٣–موسوعة شعراء العصر العباسي ،ج١ ج ٢ ،عمان ١٩٩٩

٤– موسوعة القبائل العربية ،الدار الأهلية، عمان ٢٠٠٠

٥– موسوعة عشائر العراق ج١ج٢،الدارالأهلية ،عمان ٢٠٠٣

٦–موسوعة تأريخ العرب ج١ج ٢ ،الدار الأهلية عمان.

٧–موسوعة الشعراء العرب في القرن العشرين ، الدار الأهلية ،عمان ٢٠٠٤

زاي ... ألف

الزين
ذو الشعر الأشقر كحقل الحنطة
زايله الهم
فغفا على ذروة الجبل العالي
زوّادته في جانب
زمزميته في الآخر
زنبقة نشرت ظلها على عينيه
زحفت نحو أرنبة أنفه
لكنه ما أفاق
زمن مضى ..
وهو ينام في الشمس
وجهه القمر
(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر)
تستحي الشمس من طلعته
فتغشت غيمة هاربة
كان مثل ولد قد عاد للتو
من المدرسة
فأغفى هنيهة
بانتظار أمه ..
أن تعد له
الغداء

هدهدته ..

مسحت وجهه بماء الورد ..

لكنه ما أفاق .

أعولت..

عند رأسه الضائع في

العشب

اسم الله يا ولدي

اسم الزهرة أم الحسنين

لكنه..

ما أفاق ..

زفّة العرس حتى لم تلهه عن نومته..

الجميلة

ولا صوت الموسيقى

فظل نائما في

العراء...

يهبط الطريق الفرعي بانكسار حاد.. فكان عليَ أن أسلك جانبه الأيمن حيث الدرجات الفسيحة التي أجد راحة وأنا أسير عليها. أكثر من الطريق الإسفلتي الساقط بقوة، النـاعم الذي يعرضني لخطر الانزلاق ربما، أنا الذي تحاشيت الانزلاق طوال عمري محاولا السير على الصراط، أو هكذا أزعم.

حين وصلت الدرج الذي يصب بشكل عمودي مثل شلال في شارع السلط ،كان المساء قد بدأ يهبط وأنا أنظر إليه ينثر رماده الأسود الحزين فيغطي كل الأشياء. كانت هناك شجيرات من نبات لا أعرفه، من فصيلة تحمل أزهارا صغيرة سوداء كالخيبة.. كالحزن أطلقت عليها اسم السرو الباكي، وربما كان هذا اسمها حقاً، كتلك التي رأيتها يوما في برلين قبل اثنين وعشرين عاما.

كان الشارع طويلا ومدرجا وكنا نصعد محفوفين بأشجار السرو الباكي التي تزيد المكان رهبة ووحشة تدعو إلى البكاء، تصطف على جانبي الطريق حانية ذؤاباتها مثل رايات منكوسة في يوم صائف .كان المساء يومذاك ينثر رماده الأسود على المكان .. مثلما يفعل الآن.. بالضبط.

مساءاتي حزينة دائما.. توالى نثر رمادها بسخاء.. أراه يساقط على العمارات الشاهقة وأعمدة النور والسيارات والمارة.. مساءاتي حزينة كما أنا .. أنا الذي أحمل حزني معي أنى ذهبت.كنت يومها في عز الشباب الذي لم أمتّع به، مثل

قطعة حلوى رائعة الطعم تأكلها بسرعة دون أن تتلذذ بمذاقها أو نكهتها .. سنتان وعشرون بقين من القرن قبل أن يغادر..

المشهد يختلف الآن كثيراً،مع أن الحزن واحد. حزني أنا يوحد بين المشهدين..وربما أنا الذي أسقط حزني على الأشياء.. فقد يرى الكثيرون في المساء مشهدا رومانسياً جميلاً مثلاً..

مسكونا بالحزن والوجع والهم مثلما أنا الآن . متوحدا مع نفسه، تظلل وجهه سحابة حزن داكنة تخفي عينيه عني . هو منذ أن فتحت عيني ورأيته ما حدثني عن حزنه يوما، ولا أدري إن كان يعرف أنه حزين. و لا أدري إن كان حزينا حقا، أو أنا الذي أراه كذلك.. أو أنه أنا الذي أضفي عليه شيئا من حزني، قلما رأيته يضحك، يبتسم أحيانا .. يغني .. أعترف أن له صوتا جنوبيا دافئا. صوت مجبول من عاطفة وحزن وحنين .يدندن أحيانا بصوته ذاك الذي يورث البكاء. لم يكن يحفظ كثيرا من الشعر أو الكلام المغنى، هو يكاد يفك الحرف، يقرأ القرآن عن ظهر قلب. يتلوه بصوته الشجي.. كم هائل من الحزن.. يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، يقولها بشكل مأتمي.. وابيضت عيناه من الحزن، وحين يغني يحدوحداء بدويا. .حداء إبل في هجير يوم قائظ وقد طال بها السفر وبعدت الشقة وتفتتت أكبادها من الظمأ. لكنه لم يكن من أصحاب الإبل، كان خيالا .. أشقر خنذيذ مات عند الظهيرة، فبكيناه نحن الصغار وراح هو يجر عنانه ،طرف في يده اللجام، وطرف يرسم خطاً

متعرجا وراءه في تراب الظهيرة القائظةبكاه هو رأيت عينيه تفيضان من الدمع كان يقطع به المسافة بين جلات وعلي الغربي وبالعكس في رحلات أيام القيظ. وحين تمرع المسافات تمتلئ أزهاراً صغيرة حمراء وصفراء وبنفسجية وطيور حجل وقبرات برية كالحزن وغزال مثل صبايا مرحات، يرمح قاطعا الأرض المعشوشبة بعيونه السود الغارقة بالكحل. مرة جاءنا بغزال مذبوح غزال بأكمله بعينيه المكحلتين وقرنيه المعقوفين أذكر أني نظرت في عينيه فكدت أبكي، كان مثل فتاة نائمة بهدوء ،لكنه غزال ملفوف ببطانية كان لنا عيدا نحن الذين لم نذق اللحم منذ دهر، وكان يأتينا بالحجل والقطا والفطر والكمأة.

أظنه كان يفرح حين يرى القباب الصغيرة المتشققة وهي ترتسم في الأرض المغراء المنبسطة كراحة اليد.. حين يزيل عنها التراب تضحك في وجهه الكمأة الكبيرة البيضاء الموشحة بالبني.. يملأ عليقة حصانه المنسوجة من شعر أسود بالفطر والكمأة.. هدية لنا نحن الذين نراه مرة في الشهر لبضعة أيام .. كان يأتينا أحيانا بالجوز واللوز والبندق والفستق والحبة الخضرة والنرمة والباصورك، والأحذية القطنية المصنوعة من الخيوط بنقشات جميلة وأرضية من الخيوط المحبوكة بمهارة فائقة.. كان يأتي بها الإيرانيون من الجانب الآخر من الحدود، ليأخذوا بدلها شاياً وسكرا وتمرا وتبغا.

لماذا حزين أنت يا أبي؟

أدركت بداية الكارثة.. أدركت الحزام الناقل الممتد على طول الحدود ،من أقصى شمال الوطن حتى آخر قطوة ماء في الشريان.. حزام يدور ليل نهار ينقل الأجساد الغضة من أحضان الأمهات إلى المحرقة.

مات الغزال البري في الطيب وجلات، وهربت مذعورة طيور الخضيري والحذاف والمسكة وأبو زلة ودجاج الماء في هور الحويزة وهور السناف. شوهت الخنادق والمواضع العسكرية فوق الأرض وتحت الأرض تلك المساحات المنداحة بلا حدود من التربة البكر التي لم يهتم بها أحد، ارتفعت السواتر الترابية خطاً وراء خط. اختلطت أصوات المدافع العملاقة بأصوات الحجَل الذي لم يغادر، ظل هازئا بالصياد.. صياد رماني وضرط.. ططا ططا طي ططط.. هكذا نقول حين كنا صغارا على لسان الحجَل الهازئ اليوم بقصف المدافع التي تتردد في المفازات الممتدة بلا حدود حيث لم يعد هناك صيادون يهزأ بهم الحجَل، والسماء تفتحها عشرات الصواريخ فوق رؤوس الجنود المطمورين تحت الأرض من جهة لأخرى،تسقط أني تشاء، يسمع صوت انفجار هنا أو هناك ويرتفع عمود من نار ودخان وغبار، يتشظى صاروخ أو قذيفة مدفع فتتشظى قلوب الأمهات، فالشظايا لا تمتلك أي قدر من الحكمة أو بعد النظر.. إنها أقدار موزعة، طائشة دائما.. خبط عشواء. تصيب من تشاء في الخاصرة أو في الصدر أو في العنق، وتخطئ من تشاء.. صاروخ أو مدفع،

أطلقه رام من جهة الشرق، سحب الحبل أو ضغط على الزر بفعل الواجب لا غير.. مثلما يؤدي أي موظف أو عامل واجبه، ربما كان ذلك الرامي مريضا. وربما كان مكرها أو خائفا.. وربما أيضا كان في مزاج رائق يقوم بعمله بهمة ونشاط لزيادة الإنتاج.. كل شي وارد.. لكنه لم يكن شجاعا،لم يكونوا شجعانا جميعا. شاهدتهم صبيانا بأعمار فتية يجيئون بهم، يستعرضونهم بالسيارات المكشوفة، يطوفون بهم في الشوارع.. عيونهم لم تكن تحمل أي نوع من حقد أو كره أو أي تصميم مسبق على القيام بعمل يسيء إلى الآخر. خاصة إذا كان هذا الآخر أحدا لا يعرفه.. لم يلتق به في طرقات القرية أو على مقاعد الدراسة.. كانوا في معظمهم في كلا جانبي الحدود لا أحد منهم يعرف الآخر ولا يحمل نحوه شيئا من ضغينة أو كره. جاءوا بهم جميعا من بيوتهم أو من صفوف المدرسة، اقتلعوهم اقتلاعا من جذورهم مثل نباتات صغيرة يحملون تربة الأرض مع جذورهم بل أن بعضا من جذورهم تأبى أن تفارق تربتها.. فتتقطع.. يأتون بهم.. يكفنونهم بالخاكي والأحذية السوداء الثقيلة ويعطونهم البنادق ويوزعونهم على الأصناف، تأخذهم السيارات العسكرية الضخمة ،تسيروهي تهتز بحمولتها من الخاكي الملتصق بالأجساد الفتية.. وتلقى بها عند هذا الحزام الناقل أو ذاك.. يقولون لهم بضع كلمات .. هم لا يفهمون منها شيئا ولكنهم يهزون رؤوسهم بالإيجاب وهم يفكرون ربما بالأم التي

تركوها في البيت، إنها تعد طعام الغداء بانتظارهم أن يعودوا من المدرسة أو من الحقل أو من العمل من أجل لقمة العيش.. لكنهم لن يعودوا اليوم، فالإيفا أخذتهم بعيدا بعيدا،عليهم أن ينسوا كل شيء سوى واقعهم الجديد.. هذه الوحدات الصغيرة يلتصق الواحد منهم بالآخر طلبا للدفء أو هربا من الخوف، ينظر الواحد في عيني الآخر فلا يبصر شيئا سوى حفر سوداء معتمة ورموش تخفق باستمرار مضطرب وابتسامات باهتة حول الشفاه.. يغامر أحدهم الأكثر شجاعة فيفرد قامته في حوض السيارة المضطرب.. ينظر بعيدا .. بعيدا.. لا شيء سوى الرمل الأحمر.. ولا شيء سوى الأرض والمرتفعات الصغيرة هنا وهناك .. يحس كل واحد منهم بعبثية كل شيء.. كيف يحدث هذا؟ ما شأنه هو بالحرب؟ .. ظلت البيوت وراءهم مأهولة بالفراغ .. الآباء والأمهات يشعرون بوطأة هذا الفراغ.. الإخوة والأخوات الأكبر والأصغر .. لو قدر لأي من هؤلاء الأولاد الذين يساقون إلى الحزام الناقل عند هذا الجانب من الحدود أو ذاك أن يتلاقوا لحولوا الخوذ الفولاذية إلى كرات قدم. ونصبوا أهدافا من ظروف القذائف الفارغة ومارسوا لعبتهم المفضلة بين الخنادق الغائرة في الأعماق وبين السواتر العالية.. وحين يتعبون كانوا يتجمعون في حلقات صغيرة يتحدثون عن الفتيات الجميلات وعن مغامراتهم الصغيرة الحلوة وأحلامهم في الحب والزواج وبناء بيت وإنجاب الأولاد.. ليس ثمة لغة مشتركة بين الأولاد

في جانبي الحدود.. لا بأس، العواطف الإنسانية لغة مشتركة.. التقى ذات زمان محزونان لا يعرف أحدهما الآخر ولا يفهم أحدهما لغة الآخر.. راح كل منهما يسرد حكايته فيما كان الآخر يبكي. لا يدري لماذا؟ لكنها اختلاجات الوجه ونبرة الصوت وخارطة الحزن والدموع ..الدموع لغة عالمية، والضحك كذلك وقد يتبادلون السكائر والكرزات ، ويودع أحدهم الآخر عائدا إلى بيته. لكنه يكتشف أن بيته لم يعد قاب قوسين، ولا أدنى، صار بعيدا ، بعيدا وراء حاجز من الخوف والحلم وفرق الإعدام، وداعا أيها البيت ربما سنلتقي. الزين واحد كأحدهم وكان أبي يحب الزين، صارا رفيقي البيت، يدلعه فيقول له حمد .من أين جاء بهذا الاسم ؟

حين ينهيان كل شيء .. بعد أن يحضر له حبة دواء الضغط وقدح الماء ويأتيه بالشاي.. يجلسه أمامه .. يقص عليه أيامه تلك بين جلات والطيب وعلي الغربي.. يحدثه عن الحصان الأشقر الجميل الذي مات ذات ظهيرة.. القائمقام هو الذي أدى إلى موته.. كان سمينا جدا.. وقد نصحه طبيب القضاء بركوب الحصان عند الفجر والذهاب به بعيدا بعيدا قبل شروق الشمس حتى يتعب الحصان.. اختار حصاني يقول الجد .. لأنه كان أشقر جميلا وقويا، استمر يركبه لأكثر من شهر.. حتى مات الحصان.

ينظر الصبي في عيني جده ..

بعد أن ينهي حكايته التي سمعها الصغير أكثر من مـــرة دون أن يملها.. يغني له .. غناء حزينا يقطع القلب .

لكنه لا يكمل، تدمع عيناه .. عندما يرى الصغير وقد حاصره البكاء مثلما كان يحاصرني حين كنت صغيراً، تظهر على وجهه اختلاجات واضحة كتلك التي تظهر على وجهي تمامـــا، ترتســم على شفتيه مثلما ترتسم على شفتي. يتوقف، ينظر إليه مثلمـــا كان ينظر إلي، يأخذه إليه مثلما كان يأخذني إليه، يشـــم رائحـــة تبغه وينصت إلى قلبه ينبض ببطء .. كنت أشـــم رائحـــة تبغـــه وأنصت إلى قلبه ينبض بعنف .. كان حينها في مرحلة الشباب. ونحن لا نجد لقمة تكفينا ،لكنه كان كريما، طيب النفس ،أورثنـــا ذلك. كان بيتنا الذي لا يختلف عن الجامع ملاذا لأولاد العم الذين تضطهدهم زوجات الأب المتصابيات،أو الذين تقطعت بهم السبل أو الأعراب القادمين إلى المدينة الصغيرة لشراء الشاي والسكر والقماش والتمر.

ولكن لماذا حزين أنت يا والدي؟

لم أسأله،كنت أسأل نفسي ، أحاول الابتعاد عنـــه إن رأيتـــه مشغولا بنفسه ،أتركه مع حزنه.فأنا لي حزني الخاص .. عرفني الحزن منذ نعومة مخالبه،ولم يكن حزنا موقتا،أوعابرا..كان شيئا لازمني منذ الصغر.أمي ربة حزن هي الأخرى،حين تخلـــو إلـــى نفسها تروح تدندن،ترثي نفسها،تتذكر غربتها .

هكذا منذ رأيتها.. لا أحد يطرق بابنا .. من أهلها، ليس لها إخوان أو أخوات.. أنا لم أر خالا أو خالة.. لها أخت في مدينة أخرى.. لم نرها .. وأخت أخرى ماتت.

لذلك هي تنعى نفسها إهه،إهه، إهه، ثم تروح تنخرط ببكاء صامت، يشاركها صوت الرحى حزينامثل خلفية موسيقية توجع القلب.

كانت تطحن الشعير لتعده خبزا لنا.. نرى آثار أصابعها في الرغيف الخشن المظهر والطعم.. كانت الرحى تجبرها على أن تنعَي.. تنعي فتنعَي والرحى تئن معها.. كانت دموعها تساقط أحياناً، فتختلط بالطحين، نأكل خبز الشعير مجبولا بدموع الأم. أمي تتحدث أحياناً. عرفت أنها فقدت ثلاثة من الأولاد الصبيان. كان لي إخوة يكبرونني، كنت سأكون الولد الرابع الذي ينعم برعاية الإخوان الأكبر منه، لا الولد الأول الذي يقع عليه عبء تربية الإخوان الأربعة، لكنهم إخوتي الذين سبقوني، ماتوا جميعاً..واحدا بعد الآخر .. لايكمل أحدهم سنته الثالثة حتى يغادر. تحتسبه أمنا عند الله لوعاشوا لقاسموني حزني ،ربما.لهذا كان حزينا أبي ،لكنه لم يفصح عن حزنه. ربما لم يكن يريد أن يكدر خاطري وربما لم يكن حزينا أبدا ،و أنا الذي أضفي عليه من حزني وربما هذا أحد أسباب حزني ،أو تآلفي مع الحزن..لكننا حزانى جميعا .مسحة الحزن تظلل وجوهنا حتى

عندما نفرح،عندما نضحك،نعوذ بالله من الشيطان الرجيم،نقول في سرنا اللهم اجعله خيرا.

عرفناالحزن قبل أن نعرف الموت ،وعرفنا الموت قبل ان نعرف الحرب.قرأنا عن الحرب وسمعنا بها.الأكبر منا حدثونا عنها. حرب رشيد عالي كما يسمونها ومقبرة الشهداء في العمارة، في طرف المدينة الأقصى غير قريب من مقبرة الإنكليز الذين سقطوا في الحرب العالمية الأولى.

مقبرة الإنكليزشيء آخر،متنزه جميل،أشجار باسقة وخضرة يانعة قبورمصفوفة بانتظام،وحدة عسكرية مقاتلة تتأهب للحرب،شواهد جرانيتية،وجدارية طويلةعريضةعالية من الجرانيت نقشت عليها أسماء أفراد وحدة المقبرة بعد أن وحد بينهم الموت فكانوا وحدة جديدة لهم رتبهم وصنوفهم العسكرية.

أما مقبرة الشهداء فكانت من تراب.. بلا شواهد.

كان أبي يحدثنا عن الإنكليز والسيك والكركة والهنود المسلمين والقطار، أبي كان صبياً فوق أو تحت العاشرة، وكان يتسكع مع إخوته عند معسكرات الإنكليز، يرمون لهم بالبيزات وأنصاف الروبيات والروبيات ربما.. لا لشيء .. إلا ليضحكوا ويشبعوا ضحكا هم المترفون المتخمون المنتصرون على لا أحد.. ينظرون إلى الصبية يتدافعون نحو قطع النقود الصغيرة ويتحولون إلى كتلة لحمية متماسكة بحثا عنها.. هو حدثني بذلك.. ثم حدث الزين فيما بعد..الإنكليز الجنود قد يرمون لهم

المعلبات التي انتهت صلاحية أكلها أو قطع الحلويات المتعفنة.. هكذا هم الإنكليز دائما، كان يقول.. هذه هي الحرب ليس لها وجه آخر .. وجه قبيح فحسب.. ليس لها معنى، وليست شيئا يخضع للمنطق. لعبة يتسلى بها الكبار لقتل الصغار أو استعبادهم .. الدول الكبيرة تبتلع الدول الصغيرة.. لا أحد يعرف أول حرب في التأريخ .. ربما الحرب بين هابيل وقابيل .. حرب بين أخوين، بين من قدم قربانه خضرة أو نباتا، وبين من قدم قربانه دما.. فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وقتل قابيل هابيل.. ثم توالت الحروب صغيرة وكبيرة.. حرائق يشعلها مجانين ويحار في إطفائها العقلاء. تقع الحرب دائما رغم بشاعتها ودمويتها ومأساويتها.. تندلع فجأة.. من عود كبريت وتتفجر وتغدو ضراما خارج السيطرة. يتركونها بعد أن يعجزوا عن مواجهة مشعلي الحرائق الذين يزيدونها ضراما. ثم يتعبون فتتعب الحرب.. تروح تتمطى .. تأكل نفسها.. تجتر ذكرياتها القديمة ثم تتمدد مجهدة .. تفقد القدرة على الحركة وعلى الاستعار.. ثم تهفت.. وقد تندلع فجأة.. لكنها يقظة الموت.. تخبو لتنطفئ وتموت لتتحول إلى صفحة سوداء في التاريخ. كنت أحدث الأميرة والأسعد والزين. الحرب تصنع الموت. أم الموت هو الذي يصنع الحرب ؟أيهما القدر.. وأيهما القضاء.. الحرب أم الموت؟ الموت أم الحرب؟ الحرب تصنع الموت والموت يصنع الحزن، أم الموت يصنع الحرب من أجل الحزن،

لا أحد يدري على وجه الدقة.. لكننا جميعا نكون حصة للحـــزن عندما نفقد شيئا حتى لو كان صغيرا غيـــر ذي قيمـــة.. مبـــرر صغير لأن يفرض الحزن علينا سلطانه المجلل بالأسود .. فكيف لا يستغلها الحزن فرصة ذهبية فيسكننا.. يتغلغـــل فينـــا حـــين يغادرنا الأعـــز حصـــة للحـــرب أوالموت،أب،أم،أخـــت ،ابـــن، ابنة،قريب صديق ،الحزن يتعالق معنا، حازن ومحزون عليه لكن حزن الأم لا يعدله شيء . إنه أعلى درجات الحزن علاقة وثيقة بين الحزن والأم ليس بعدها درجة، حزن لا يعدله حـــزن الـــدنيا بأكملها .. قلب الأم صـــناعة خاصـــة.. أربعـــة أخماســـه مـــن عاطفة،حب وحزن، وحنين وحزن.

حكت أمي عن أبيها:

– فقدت ناقة فصيلها .. حزنت عليه. لاحظوا ذلك، لم تقرب معلفا ولا موردا.. خافوا أن تروح .. تداركوها فذبحوها .. فماذا وجدوا؟ وجدوا كبدها قد تفتت..تحول إلى قطع صغيرة من دم.

قلت لها: ما علاقة الحزن بالكبد يا أمي؟

– كيف ذلك يا ولدي؟وما علاقة الحب والكـــره بالقلـــب؟ ألا تقول أحب فلانة أو فلانا من كل قلبي،أكره الحرب من كل قلبـــي ويقول لكم المعلم:احفظوا هذه القصيدة عن ظهر قلب..

– صحيح والله يا أمي.. ولكن ألم تسألي والدك هذا السؤال؟

– سألته .. فقال لي: لا أحد يعرف حد الآن علاقة القلب بكل هذا .. ثمة علاقة لا شك.. لكنها مجهولة حتى اليوم.. ربما يفتح

الله تعالى على الناس ذات يوم فيلهمهم الجواب..أنا يا ولـــدي لا أعتقد أن الناس على خطأ أو وهم منذ القديم وهم يتحدثون عن القلب.. عندما تفرح ألا تحس بخفقان قلبك .. وحين تخـــاف ألا يضطرب قلبك ويكاد يسقط بين قدميك .. وعندما تحزن ألا تحس بجبل الحزن يجثم على قلبك؟..

قلت لها صحيح ما تقولين أيتها الحكيمة.

زارتنا الحرب ضيفا ثقيلا.. سمعنا عنها من الكبار .. حروب كبيرة وصغيرة وغزوات واقتتال بين العشائر من أجـــل الأرض والماء والمرعى وشاهدناها في السينما .. أفلام عـــن الحـــرب العالمية الثانية ومعارك التحرير.لم تكن في مجملها لتتـــرك فـــي الذهن صورة مرضية.. موت بالجملة ،دماء، حرائـــق، أســـرى، مفقودون، أرامل وثكالى ويتامى ومشردون .. هذه هي الحـــرب دائما.. لا أحد يرحب بها. لكنها تفرض على الناس ،ولا بد مـــن استقبالها. جاءتنا الحرب الأولى تمشي علـــى غيـــر اســـتحياء، فالحرب لا تستحي ،وجاء الموت يرافقها.. وحش بأنياب ملطخة بالدم ،كان يضحك بانتصار وتشف وقـــد عثـــر علـــى ضـــالته المنشودة وجاء بعدهما الحزن، سحابة ســـوداء قاتمـــة.. قـــدم الثلاثة معا.. الحرب عجوز شمطاء والموت أشداقه تقطر دمـــا.. والحزن ،أقانيم ثلاثة، جاءوا مترادفين مثل سحابة من خـــوف، كثير من الخوف والرهبة، غطت السماء من الأفق إلى الأفق .. صبغته بلونها القاتم مخلفة وراءها قلوباً تقطر دما وعيونا تنزف

دمعا كالدم .. وحرائق في كل مكان ودخان.. أمهات مفجوعات، وآباء .. إخوة و أخوات.. زوجات دخلن مربع الترمل وأطفال صاروا في منطقة اليتم القاسية.. كان الموت يشغلهم فينسون الحرب، ينشغلون عنها ،لا يعودون يتذكرونها حتى حين. الموت أخذ حصته منهم فماذا يريد؟ لكن الحرب ما تزال تضطرم.. وما يزال الأبناء يقاتلون في الجبهة، والعائلة التي قدمت ضريبتها لإله الحرب تكاد توقن بأن الإله لم يعد يفكر بها، فليس من المعقول أن يرسل موفده الخاص ليقطف زهرة أخرى.. هذا هو يقينها.. تظل مطمئنة، مشغولة بنفسها .. بحزنها عن الموت وعن الحرب .. إلا الأم فهي وحدها التي تظل متوجسة.. لا تنام الليل.. تتسقط كل نأمة.. تفزع لدقة الباب، ورنة الجرس أو صوت سيارة تقف عند الباب. تظل مشدودة الأعصاب فهناك الأبناء ما يزالون تحت رحمة الحرب والموت. ويصدق قلب الأم فيقوم إله الحرب بإرسال مبعوثه الخاص في زيارة خاطفة.. يمد ذراعه الطويلة المكسوة بالشعر الأسود الخشن، فيخطف زهرة ثانية وثالثة وربما رابعة.. حدث هذا في حربنا الأولى. أكثر من عائلة قدمت أكثر من شهيد في عام.. قدمت ثلاثة أو أربعة شهداء في العام نفسه.. صار الموت طعامهم اليومي .. صار رفيقهم الدائم .. يقاسمهم لقمة الطعام واستكان الشاي وكأس الماء ونسمة الهواء.. ضيف ثقيل لا يعرف حدودا للياقة.. الحرب لا تقنن والموت لا يعرف شيئا اسمه الانضباط، فهو لا

يتصف بأي نوع من المجاملة أو الحياء، كيف ينسى الواحد منا الموت وكيف ينسى أو يتناسى الحرب. الموت قدر .. والحرب عمل عبثي.. لا تدري لماذا اندلعت؟ شيء سخيف للغاية لا يستحق أن يقتل من أجله إنسان واحد. بعد عشرين قرنا نعود إلى منطق البسوس.. يظهر كليب آخر مدجج بالعنجهية والغرور، يضطهد أبناء العشيرة الذين أوصلوه إلى المجد لا يأكل معهم، يفرض عليهم نوعا من الطعام عليهم جميعا أن يأكلوه من مطبخه الخاص. أنا المثير المبير كما قال أبو العباس السفاح، لئن أمرت أحدا أن يخرج من هذا الباب فخرج من الباب الآخر ضربت عنقه.. كما قال الحجاج الطائفي (ابن الطائف) المعلم الفاشل ربيب روح بن زنباع..

ضحى يوم من أيلول أعلن التلفزيون (أننا) قمنا باجتياح الجار الشرقي من خاصرته الغربية عند الشيب. وعند صباح اليوم التالي شاهدنا لأول مرة الطائرات تحوم في سمائنا،تقصفنا. صارت الحرب واقعا،ترسل نذرها كل يوم،التلفزيون يكاد ينفجر من الصراخ على مدار الساعة، وقد استعادت الكهرباء عافيتها لا ندري كيف؟ صرنا ننعم بها نهارا من أجل التلفزيون بالطبع . بمرور الأيام ترعرعت الحرب واشتد زندها وصارت شيئا مثار إعجاب الحاكم بأمره،راح يغدق عليها بالمال والسلاح والأرواح حتى لا تتعب أو تمل .. هو يريدها أن تظل مثار فخره، فهو حارس البوابة الشرقية..

قصف صاروخي طال المدن،توابيت ملفوفة بالاعلام تجوب الشوارع والساحات والحارات ونداءات تليفونية للبيوت تعالوا أيها المسعدون، تعالوا خذوا حصتكم من الموت السعيد.. يعطونهم صندوقا ملفوفا بعلم وورقة خضراء، هناك مجالس عزاء وسماعات تصدح بسورة يوسف وقبورمهيأة سلفا،ومقابرتنمو كالفطر. الحرب سعيدة بما حققته من منجزات على جانبي الحدود.

رمضان في آيار .. أربعة وعشر قبل انقضاء القرن.. ما كنا نفكر في انقضائه وما كنا نحسب له حسابا.. ولماذا نعده أو نعد أيامه أو نفكر به.. فانما هي أيام يأخذ بعضها برقاب بعض.. شمس تؤدي دورها المعتاد منذ ملايين السنين.. لا تتقدم ولا تتأخر.. تشرق وتغرب وتشرق. فجر كاذب وفجر صادق.. وصباح وضحى وظهيرة وعصر ومساء وأصيل وغروب وعشاء وهزيع أول وهزيع آخر من الليل .. إلى الشرق منا تدور رحى حرب لا تريد أن تنتهي .. حزام ناقل طوله أكثر من ألف كيلو متر .. يدور ليل نهار يطحن الرجال ويلقيهم في محرقة أشعلها كليب بأمر أو بدون أمر، بحسن نية، أو بنية مبيتة، لا يهم ذلك. يدور الحزام الناقل من المحمرة حتى الخفاجية ومن البسيتين حتى سومار وكيلان غرب ودهلران، من قصر شيرين حتى سربيل زهاب إلى سنندج يقابله حزام آخر من الفاو ونهر جاسم حتى بحيرة الأسماك والشلامجة حتى الدير والسودة والبيضة

والترابة ولسان عجيردة والشيب والطيب والفكَـة وجلات،مـن بدرة وجصّان ومندلي حتى عربت وسيد صادق وبنجوين وحاج عمران ،حزامان ناقلان متقابلان، يدوران ليـل نهـار. القـرن سينتهي لا محالة،كما انتهت كل القـرون وكمـا سـينتهي كـل شيءالطغاة ومشعلو الحرائق وتجارالحروب مادامت هناك شمس تشرق وتغرب منهمكة في صناعة النهار هنا وفي كل مكان.

الجميع يفكرون بنهاية الحـرب،هم موقنـون جميعـا بأنهـا ستنتهي لا محالة، إلا أن أحدا لا يعرف متى يكون ذلـك .ربمـا يكون غداً أو بعد غد.ربما بعد شهر أو سنة أو بضـع سـنين. الحرب تمادت، أخذت حصتها وزيادة ،أكلت الأخضـر واليـابس ووصلت سكاكينها الغادرة حتى العظم،لذا كـان التفكيـر يقـض مضاجع الجميع أكثر من التفكير بنهاية القـرن.لا أحـد يحـب الحرب ..لا أحد يعبأ بالقرن.

الناس ما يزالون يمارسون حياتهم الاعتيادية رغم كل شـيء. يولدون ويتناسلون ويموتون ويدفنون،مجالس فاتحة وحفـلات عرس.الخيمة المقوسة، تنصب اليوم في مجلس فاتحة وغدا في حفلة عرس ،مكبرة الصوت التي تردد سورة يوسف هي التـي تردد أغاني الأفراح.الناس ما يزالون يبيعون ويشترون ويقتـل بعضهم بعضا بالسكاكين والمسدسـات والتقـارير والوشـايات. تزدحم الجوامع بالمصلين ،وحانات أبي نواس تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل. التلفزيون ما يـزال يصـم الآذان بـأناشيده

الحماسية التي تدعو إلى الحرب وتعرض بالصورة القريبة مشاهد مئات الجثث المتفسخة للإيرانيين،يتعمد المصورون بأوامر عليا تصويرالوجوه المحترقة والمشوهة ويتلذذون إذا عثرواعلى ذبابة تجوس خلال خرائط الوجه. يقربون الذبابة حتى تغدو وحشا كاسرا يلتهم الوجه بشهية لا مثيل بها.يعرض أسرى العدو بالسيارات المكشوفة في الشوارع بين حشودالناس الذين جيء بهم بأوامرعليا ليشهدوا انتصاراتنا الباهرة !

قبل شهر من رمضان ذاك الذي كان في آيار احتفل الزين بعيد ميلاده .. كان احتفالا بسيطا، احتفلنا به جميعا .. قالب كيك.. وشربت .. وشمعة واحدة كبيرة وسنة حلوة .. ثم أطفأ الشمعة بين تصفيق أيدينا.. أيدي إخوته الصغار والكبار.

عثرت في مقتنياته الشخصية بطريق المصادفة على صورة له مع مجموعة من طلاب كليته،طلاب وطالبات، صورة ليست كبيرة وأنا لا أعرف الوجوه الصغيرة إلا وجه الزين ،كان يفرد قامته المهيبة ويقف باعتدال وسط الصورة تماماً،كان الأطول بينهم ،طلاب وطالبات يمكن أن تلتقيهم في أيةكلية أومعهد في العراق أو في العالم.

أمه سمعته مرة وهو نائم. كان يحلم وقت الظهيرة، وهو يردد اسم بيداء. جاءتني وقالت لاحظت أن قلبها كان يخفق:

– ابننا كبر ولديه صديقة.

نظرت إليها وابتسمت

- اسمها بيداء .. أنا سمعته يردد اسمها ..

- اسم غريب ،البيداء هي الصحراء، أي اسم هذا ؟جفاف وجدب. ورياح عاتية ورمال... لقد كبرنا ، أردفت تقول.

رغم ذلك رأيت ومضة فرح في عينيها .

- سنة الله ..ولكن هل نسيت أن الأميرة ستتزوج خلال أشهر، وسيتزوج الأسعد بعدها.

أطرقت بحزن، لا أدري لماذا؟

في ظهر الصورة، قرأت تأريخ اللقطة واسم المكان، لكنه لم يشر إلى بيداء في الصورة،خمس فتيات وتسعة شبان، الزين تاسعهم يقف في منتصفهم.كنا نشاهد الصورة معا، قالت أمه:

- من تراها بيداء؟ ربما هذه .. جميلة بالفعل .

- من يدري . وما أدراك أنها من بينهن، ربما كانت فتاة أخرى في الكلية وربما خارج الكلية.

- من يدري .. ربما كان ذلك صحيحا .

في بضع ليال بقين من رمضان ،رن جرس الهاتف . نزل الزين من السطح حيث كنا ننام، هرعنا جميعا .. كان قد رد على الهاتف ،التقانا نازلين بابتسامة حاول أن يخفي وراءها قدرا لا بأس به من قلق وخوف غامض. أنا لاحظت هذا دون الآخرين، كان هوالمطلوب كما خمنا قال إنهم يطلبونهم للحركة. دلف إلىالغرفةاستبدل دشداشته البيضاءبملابسه العسكرية .لمّع حذاءه العسكري رغم أننا في منتصف الليل وتهيأ للخروج قلت له:

- دعني أذهب معك، أوصلك حتى نهاية الشارع لأعرف وجهتكم على الأقل.

- لا، قد يتأخرون يا أبي، اتصلوا بي من المحمودية، يلزمهم أكثر من ساعة للوصول. اصعد ونم ، أنت متعب.

- كل شيئا للسحور .. قالت أمه.

- نتسحر في الطريق . المطاعم مفتوحة طوال الليل.

- إلى أين وجهتكم؟

- إلى الشمال، لكن لا أدري إلى أين بالضبط، عندما نصل سأتصل بكم إن شاء الله.. لكن الله لم يشأ.. اتصل بدله صوت جاف بليد محايد بشكل مقرف. كان الجو ظهيرة أحد حارا ،وكان يغالب نعاسه على أغلب الظن وهو يلوك كلماته بغباء..

- هذا بيت سعيد مسعود؟

- نحن مركز شرطة الأمل.. تفضل عندنا.

الخوف من مركز الشرطة شيء غريزي..لكن خوفي كان بلا حدود، جبلا جثم على صدري، قطع أنفاسي، وجدتني فجأة أغرق في بحر من الخوف.. لماذا الشرطة تطلبني بالتلفون؟ الشرطة لا يطلبون الناس بالتلفون ليحققوا معهم، أو ليسألوهم رأيهم في آخر التطورات الدولية أو ليناقشوهم في أمور نزع السلاح أو حظر التجارب النووية، أو وضع الأسس الكفيلة بوقف الحرب الدائرة منذ ست سنوات عجاف، أو ليسألوهم عن أوضاعهم المعيشية أو الصحية أو ليقدموا لهم جائزة أو هدية. ليس هناك

شيء من هذا في كل مراكز الشرطة في العالم، الشرطة تشفط من تريد من غير سؤال،تستطيع أن تمحو أثره من الوجود إذا شاءت. أما أن يتصلوا عبر التلفون فتلك هي الكارثة. خاصة أيام حربنا الأولى، هذا يعني أن ابنا أو أخا أو أبا أو عماً أو خالاً قد جيء به محمولا على ظهره على ظهر سيارة.

أخته الصغرى، كانت ترتجف، تحولت إلى قشر ليمون لكنها حاولت أن تتعلق بخيط واه، بخيط عنكبوت ...

- ربما عمل مشاجرة، وجاءوا به إلى الشرطة.

أمها لم ترد. قلب الأم له مجساته التي تستشعر عن بعد مئات الكيلو مترات .. صرخت .. لطمت صدرها .. لابد أنها علمت لحظة تشظى الصاروخ، حينها تشظى قلبها. دخلت في نفسها.

كان علىأن أتماسك ،فنحن في العام السادس للحرب الأولى. والمطر ناش كل الرؤوس، مطر أسود أوله قطر.

قبل سنة .. سقط ابن أختي في شمال العراق أيضا.. بكينا .. لطمت النسوة الخدود وشققن الجيوب . .الأم والأخوات وبنات العم.. وتفرعات الشجرة .. أقمنا الفاتحة وجلسنا في الجادر المنصوب أمام البيت نستقبل المعزين ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث والذكريات . .اجتمعنا من مختلف المدن البعيدة والقريبة ورحنا نستعرض ذكرياتنا الجميلةونسأل عن فلان وفلان وكنا ننكت ونضحك أيضا ونأكل ونحن نوالي شرب فناجين القهوة السوداء المرة ونتطلع إلى كانون القهوة دون أن نرقى إلى أدنى

قدر من مشاعر الأم والأب .علي الآن أن أواجه الموقف بكل حزم فالربان عليه أن يتحلى بالشجاعة والصبر، عليه أن يبتسم ويجامل المعزين عليه أن يأمر عينيه بابتلاع الدموع تدفعها بعيدا إلى صحراءالروح لترسم عليها خطوطا وتحفرفي القلب وديانا، عليه أن يفعل ذلك فهو الأب والأخ الأكبرورجل المجتمع.

ماذا علي أن افعل غير أن أتجلد كما تجلدت قبل ثلاث ليال لا غير.لم أبك وأنا أودعه ولم أدر أن ذلك سيكون الوداع الأخير..

خرجنا جميعا إلى الباب ونحن في رمضان الذي كان في آيار، في الهزيع الأخير من الليل.. من مكان بعيد تناهى إليّ صوت طبل السحور .. أبو طبيلة كما نسميه. كان ذا إيقاع يختلف عن إيقاع طبل زفة العرس الجنائزي الذي عشته بعد يوم واحد من وداع الزين أو يومين، كنا يوم سبت كنت عائدا من المدرسة وقد أنهيت دوامي لذلك اليوم.. أقطع الطريق نحو بيتي مشيا على قدمي.. المسافة ليست بعيدة. كنت سارحا مع أفكاري .. الزين.. غادر منذ يومين، ليلة الخميس على الجمعة.

لا بد أنه وصل الآن إلى المكان المقرر لهم، لكنه لم يتصل وكيف له أن يتصل والمنطقة لا بد خالية من أي اتصال مع العالم إلا عن طريق البدالات العسكرية. ومن هو حتى يسمح له بالاتصال عبر بدالة وحدته. كنت أحدث نفسي أحاورها حين اجتازني موكب عرس، قلت في نفسي زفة عرس عند الظهيرة، موسيقى نحاسية وطبول .. زفة عرس بإيقاع حزين.. البوق

هذه الآلة الصادحة الضاجة كيف له أن يوقع مثل هـذا اللحـن الحزين الذي يفطر القلب ويورث البكاء ،يرافقه الطبل بضـربات أحسها في المعدة .. لم أكن أعرف ابن المسعدة المكفن بالعلم .. قلبه الأبيض إلى السماء بنجومه الخضر .. لكنه من أبناء محلتنا لا شك.. جاءهم نداء عبر التلفون فهرعوا إلى مركـز شـرطة الأمل الباسم واستلموه صندوقا ملفوفا بالعلم ثم نظموا له موكب عرس، فهو شاب لا شك، لم يتزوج بالطبع، ربمـا كـان أحـد تلاميذي، ربما كان تلميذا نابها أو مشاكسا . سأعرف ذلك حين أصل البيت فالأخبار السيئة لها سرعة البرق وأجنحـة خاصـة تطير بها بسرعة، وتنتشر بسرعة. كانت أمه تـرقص بإيقـاع زوربوي مدهش، تدور حول نفسها، وقد شدت عباءتهـا حـول وسطها غير عابئة بأحد.. كانت منفصلة عن العالم بكل تأكيـد، تعيش لحظات تجل من نوع خاص، توحد مع الذات بعيداً عن كل المحسوسات. هل سمعت هذه المرأة بزوربا،أشك في ذلك ،لكـن لحظة الحزن والعبث التي سيطرت على زوربا هي ذاتهـا التـي كانت المرأة في دوامتها.. كان أنطوني كوين الذي جسد شخصية زوربا سيحسدها بكل تأكيد، سيبكي لها دون ريب رغم أن زوربا لم يبك قط. كان حزنه يمتزج بفرح من نوع خاص،هي الأخـرى لم تكن تبكي، كانت ترقص بحماس منقطع النظير تحـت تـأثير إيقاع الطبل الذي له دور كبير في تصعيد هـذا الموقـف حتـى الذروة، أو أن قارع الطبل كان يستمد إيقاعه من رقص المـرأة

الهستيري كان الجميع يبكون وهم يحفون بالموكب المنحدر إلى الطرف الآخر من المحلةأنا بكيت منذ أول لحظة أحسست بالطبل يضرب معدتي والأبواق تحرك نقاطا في رأسي فبكيت، لكنني لم أبك بعد يوم وقد حلق غراب البين فوق بيتي دون أن أدري.

واصلت سيري،قطعت المسافة ابكي بصمت،لماذا؟لاأدري. تجاوزتني زفة العرس بين إطلاق الناروصوت الطبل والبوق ورقص المرأة التي لم تتعب كنت،أتابعها بمخيلتي بعد أن أصبحت الزفة بعيدةعني،تخيلتها وقدغدت كتلة دم ترقص مثل طير مذبوح.

حين وصلت البيت طالعتني فوق المنضدة بطاقة أنيقة فتحتها، شعرت برجفة غريبة وأنا أقرأها ..

- ما هذا؟ صرخت .

جاءت زوجتي راكضة من المطبخ ..

- هذه البطاقة ..

- كما ترى .. ماذا تنتظر البنت؟ ذهب زوجها في المحمرةأربع سنين حتى الآن وهي تنتظر.

صرخت بغضب مماثل.

- كلكن هكذا ..

- اذكر الله، لماذا نحن؟

- أنت تدافعين عنها..

– أدافع عنها؟ من هي أختي.. ابنة عمـــي .. قريبتـــي .. مجرد معرفة وجوار .

– آسف .. لقد فقدت أعصابي.. جئت أبكي طوال الطريق..

– أعرف .. كنت عندهم في البيت.. يقولون إنك درســته.. اسمه فرج، فرج جودة.

– آه.. مات الفرج. ثم عدت إلى الموضوع.

– تزوجت أخاه. هكذا بكل بساطة.. لماذا؟ هل هــي أزمــة رجال.. أم أزمة نساء.

– يعني خيرنا لايروح لغيرنا..

– سيارة وراتب .. وفتاة شابة..

– هذه هي الدنيا، صبرت أربع سنين،الناس لاترحم..والأيام لا ترحم،المرأة بين نارين دائما، من أجل ابنها على الأقل.

– من يدري.. قد يتنكر له عمه .. من يدري؟

– وإذا عاد أخوه .. من يقول إنه مات.. ربما يكون أسيرا أو مفقودا.. ألم يحدث شيء من هذا .. ماذا تفعل المسـكينة .. وماذا يفعل العائد المسكين. أليس هذا جائزاً؟

- لم لا؟ كل شيء جائز هذه الأيام.

– ويوزعون البطاقــات ،ويعملــون زفــة وتــذهب إلــى الصالون..ألم تأت الأميرة من المدرسة ؟

قبل أن أنهي سؤالي سمعت وقع أقدامها خفيفا هادئا..

– لماذا أنت حزين يا أبى.

أسحب خطواتي المتعبة نحو وسط المدينة

ألقيت محاضرتي يوميات مغترب.. في جمعية أصدقاء الكتاب ومررت بشجيرات السرو الباكي ثم نزلت إلى شارع السلط.

كنت حزيناً، تحدثت عن تجربة الفقد.. تعاطف الجمهور معي.. ترقرقت عيون بعض السيدات بالدمع. أنا أعرفهن صادقات، كنت التقيهن هنا في عمان، وهناك في بغداد. خمس سنوات وأنا أقطع المسافة بين عمان وبغداد.. وبغداد وعمان جيئة وذهابا ،وذهابا وجيئة. أقف ذليلا أمام موظفي الجوازات العتاة في بغداد ثم في طريبيل حيث تفتح الحقائب وتلقى محتوياتها على الأرض .. يفتشون كل شيء.. كل شيء، جيوب الملابس وقاع الحقيبة والكتب والأوراق ، يا للكتب كيف تثير شهية المفتشين، وهم يقرأون العناوين بحذر ..ماذا يعني هذا الكتاب؟ لماذا تخرجه من العراق؟ لماذا تدخله؟

عشر سنوات ونحن نذبح على الطريقة الإسلامية ووفق أحدث الطرق التي تورث أقصى درجات الألم قبل الموت. نغيب، نسجن ،نشرد في المنافي. لا أحد رفع يده احتجاجا، الجميع يصفقون.بعدالمحاضرة وقف شاب وسيم ،قال كلاما رائعا.. تقدم مني لمصافحتي، خفت، سينقل أحدهم ذلك إلى سفارة بلادي..

حاولت أن أعرج على مأساتي الشخصية التي هي مأساة شعبي، رأيت الامتعاض على الوجوه، الصديق الذي قدمني

للجمهور كان أستاذا في فن حسن التخلص.غمرني بكلمات رقيقة.أشاد بي ثم شكرني على محاضرتي القيمة،وأسدل الستار.

لا بأس عليك أيها العراقي الموزع في أرجاء القارات أن تجوع وتعرى ،أن تنتعل الدم لا بأس عليك أن تموت حياً أو أن تموت بلا قبرلا بأس عليك أن تبكي دما لفقدابن أو أخ أو زوج .

كنا واقفين عند الباب ونحن قبل الهزيع الأخير من الليل، وعند الهزيع الأخير من الخوف، طبل السحور يتردد بعيدا ، ليالي رمضان في علي الغربي، مدينتي الثانية التي أمضيت فيها خمس عشرة سنة من طفولتي وصباي. مدينتي التي علمتني حب الناس وكيف أعشق الحرية وأمقت الظالمين. كنا أولاداً صغارا نسهر في الجامع الوحيد في المدينة الصغيرة التي تنداح مثل شريط ضيق على نهر دجلة، نسهر حتى السحور في ليالي الصيف كهذه نردد الأدعية والأوراد ودعاء الافتتاح لشهر رمضان، اللهم إنا نفتتح الثناء بحمدك ،يقرأه كل ليلة شاب اسمه غدير، هو الوحيد الذي لم يحلق لحيته بين الشباب، صوته جميل فيه بحةحزن، نردد بعده بخشوع وبصوت غير مجهور محلقين في سماوات بعيدة. نردد بصمت. اللهم وصل على الصديقة الطاهرة فاطمةالزهراء .

باسم الله يا ولدي

باسم الزهرة أم الحسنين

تسكب شيئا من ماء حيث تعثرت وسقطت تقول لي:اسم الله. الزهـــرة.أرفـــع رأســـي،أتمعن وجههـــاالأبيض المشـــرب بالحمرة،المدورمثل رغيف خرج مـــن تنورهـــا المســـجورللتو. عصابتها سوداء سحابة ليل تحيط بدرا. رائحتها رغيف ساخن. تحدق في وجهي ،ابتسامتها عريضة .. بدر يبتسم. هل دار ببال ذاك البدر المبتسم أنني سأكبر بهذه السرعة لأصير رجلا. أخلف أبناء، هي رأت الأميرة والأسعد والزين، حملت الـــزين. علـــى ذراعيها ،وهي التي سمته الزين،تعال يا زين،روح يـــا زيـــن.. هيء لي السجادة يا زين ،ساعدني على الوصول إلى الباب يـــا زين ،حتى وقد كبرت وقبل أن تغادر. هل دار ببالها أنني سأبكي في زفة عرس جنائزي لا أعرف صاحبه وأن الزين يكـــون أول من لحق بها بعد سنتين لا غير،عاشت أربع سنين مـــن حربنـــا الأولى،وأناأسمع صوت الطبل يتردد بعد ثلاثين عاما من ليـــالي علي الغربي المترعة بالجمال ،ليلة صائفة ونحن نردد معه.

يا أمنا كفّي الدموعا..

وانتظري لي رجوعا.

كنا نجوب الشوارع بعد أن يغلق الجامع أبوابه وبعد أن يكون خوجةعلي بلحيته البيضاء المستريحةعلى صدره العريض قد قرأ دعا كميل،الحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء،ثم تأتي عبارة كل شيء خمسين مرة،كان كليلا أقرب إلى العمىوكـــان يحفـــظ الدعاء عن ظهر قلب،وكان كاظم مالي-لام مفخمة-أكبرنا شـــاب

يافع مديد القامة متورد الخدين يتحزم بالطبل على دشداشته وقد وضع طاقيته المزركشة بالألوان على رأسه بشكل بهي يضرب على الطبل بعصاوين صغيرتين بإيقاع عسكري حزين وساحر.

لاحت رؤوس الحراب..

تلمع بين الروابي..

تررم .. تررري رم .. تررم..

نجوب الشوارع المقفرة الضيقة، الملفعة بالتراب .. حفاة .. نردد النشيد بحماس ونحن ندفع صدورنا الصغيرة إلى الأمام.. نحاول أن نعطي أصواتنا مسحة رجولية، وقد نسينا أننا نهدف إلى إيقاظ الناس للسحور.. كانوا يستيقظون بالفعل، ويخرجون رجالا ونساء، ينظرون إلينا.. البعض منهم يطوقه البكاء.. كانوا يودعوننا بالفعل وهم يبكون.. مع أنهم لم يودعوا أحدا من أبنائهم.. فتلك كانت سنوات سلام وأمن.. لم تلوث المدينة بالخاكي .. ولم يعرف الأولاد غير أحضان أمهاتهم .. حتى أننا لم نر أي جندي في تلك المدينة القريبة من الجبال، غير بعيد عن جلات الذي أصبح معلما بارزا من معالم حربنا الأولى.. ولم نكن نعرف اللون الخاكي إلا في ملابس الشرطة الذين لا يتجاوز عددهم العشرة بما فيهم المعاون ومأمور المركز وأبي الذي يحمل شريطا أحمر ثم صار أسود على عضده الأيمن.. وكان كاظم مالي جادا. وكنا جادين متحمسين.. وكأنه يقودنا إلى جبهة حرب، ولكن أية حرب كنا نتطلع إليها؟ ونحن لم نشاهد أية حرب

حتى على شاشة التلفزيون الذي لم يكن قد ولد بعد.. ربما شاهدنا بعض المشاهد الحربية على شاشة السينما المتجولة التي كانت تزور مدينتنا الصغيرة في فترات متباعدة.

كان صوت الطبل بعيدا . . بعيدا، كأنه قادم من الأعماق. رحت أردد معه .

يا أمنا كفّي الدموعا ..

وانتظري لي رجوعا.

لكني لم أكف الدموع.. دفعتها إلى داخل العين، نحو الروح ، القلب ، لتحفر هناك أخاديد لا تمحوها رياح النسيان.. ولم تفعل أمه ما فعلت . كنت أنزف دموعا.. نزف داخلي.. وكانت أمه تعول ببكاء صاخب مكلل بالدمع في منتصف الليل.. قلت لها..

- اذكري الله.. ليس من الصحيح أن نودعه بالبكاء

- كيف ؟إلى أين هو ذاهب، في نزهة..

- ليس هو الوحيد.. وليس هو خير من غيره، هذا هو قدرنا .. صلي معي من أجل سلامته . فليحفظه الله.

اتخذ طريقه نحو الشارع الرئيسي المؤدي إلى الراشدية.. انتظر ربع ساعة حتى جاءت سيارة إيفا عسكرية .. رمشت له بمصابيحها الأمامية.. عرفوه، توقفت السيارة فصعد إلى الحوض الخلفي، سلم وجلس مقرفصا أول الأمر. كان الآخرون واجمين،أول مرة بالنسبة لكل منهم يغادر بعيدا عن بيته ..

البعض منهم من بغداد والآخرون من المحافظات .. الشاحنة العسكرية تدرج بهم وهي توالي اهتزازها قال له أحدهم:

- اجلس على الفراش.. ليس من المعقول أن تظل هكذا.. أمامنا طريق طويل. جلس على رزمة الفراش.. راح يفكر في أمه..كنت أتابع كل ذلك في مخيلتي .. ضمن سيناريو رسمته في ذهني استنادا إلى معرفتي بجغرافية المكان ومعرفتي بابني الذي رعيته مذ كان قطعة لحم حمراء ملفوفة بقطعة من قماش أبيض حتى صار رجلا.. أتابع وقع حذائه العسكري اللامع في جوف الليل على إسفلت الشارع المسكون بالهدوء، ونحن نقترب من الزقاق الصغير المؤدي إلى بيتنا، أسمع نشيج أمه وصوت دموعي المحتبسة وهي توالي انحدارها إلى الداخل مثل مياه تحفر في طبقات الصخر لكنني لم أسمح لها بالمغادرة .

على مائدة السحور، كانت الأميرة صامتة.. لم تتكلم.. كان الجميع تحت رحمة صمت مطبق، لم يسمع إلا أصوات ملاعق تحتك أحيانا بالصحون. حاولت البنت الصغيرة أن تقول كلمة.. نظرت إليها الأميرة من تحت أهدابها.. فتوقفت اللقمة في منتصف المسافة إلى الفم وتوقفت الكلمة عند الشفتين ولم تغادر. ابتلعت البنت لسانها مع الكلمة دون اللقمة..نظرت إليهما معا، ابتسمت محاولاً إضفاء شيء من السكينة على الموقف المتوتر المحتقن بالدموع والصمت.. قلت بلهجة خطابية حاولت أن أضفي عليها شيئا من الطراوة حتى أنني وسعت ابتسامتي .

– ما هذا .. قولوا يا الله.. يا جماعة ،إن شيئا لم يحدث.. شاب ذهب إلى الجبهة مثل الآلاف ممن هم في عمره أو أصغر منه أو أكبر، سيأتيكم إن شاء الله في الإجازة وسيجلب لكم الجوز واللوز والفستق ولا ينسى بالطبع لبن أربيل.وضحكت .

رفرفت ابتسامة حيية على شفاه الأولاد،أما الأم فلم تبتسم .. رفعت يدها من الطعام وقامت. دخلت المطبخ، سمعتها تبكي.

***

بعد رمضان ذاك الذي كان في آيار.. وبعد أن تنتهي السنة الدراسية كان من المقرر أن تتزوج الأميرة من الشاب الذي عقد قرانها عليه قبل أشهر لا غير.

كانت حفلة بسيطة للغاية. تم فيها كل شيء على قدر عال من الاختصار،دون أية مظاهر احتفالية قد تؤذي مشاعر الآخرين.. المطر ناش كل الرؤوس واللافتات السود المكتوبة بالخط الأصفرغطت الجدران في الساحات والشوارع والأزقة وأبواب البيوت،أعلام عراقية عندالأبواب أحيانا.اللافتات تنعى الشهداء، يذكر فيها اسم الشهيد وتاريخ ومكان إستشهاده. قاطع سربيل زهاب أو قاطع الخفاجية أو الشوش أو سومار أوالمحمرة أو البسيتين ثم قاطع الفاو ونهر جاسم وبحيرة الأسماك والشلامجة ثم الشيب والطيب والفكّة وجلات وكردمند وشرق البصرة..

الأميرة تقطع الطريق ذاته كل يوم، سلكه الزين ليلة الخميس تلك من رمضان في آياروسلكناه نحن،أمه وأنا متخفين وراء

بعضنا حتى تشبع أمه من شوفته ،لكنه ضبطنا متلبسين بتلك الفعلة التي لم يرضهافطلب مني برجاء أن أعود معها إلى البيت.

في ذلك اليوم من آيار كانت تتهادى مثل حمامة من نور.. أنهت حصة الفيزياء الأخيرة لطالبات الخامس العلمي. ثم مرت مع صديقاتها على المحل المجاور للمدرسة هكذا بحكم العادة، تدخل الصديقات المحل بإدارة محروس الذي يبيع الكماليات والأدوات المنزلية على مختلف أنواعها مما توزعه الدولة بسخاء لبيعه بأسعار زهيدة. كان محروس يدير الوكالة المسجلة باسم شخص آخر، عراقي،متفرغ للحرب بين بيته والدائرة، السلاح بيد ويده الأخرى في جيبه دفاعا عن العراق العظيم وحتى يرضى عنه الأجداد العظام. فتح الوكالة بعد أن اقتطع غرفة الإستقبال في بيته وحولها إلى دكان.. وكان المواطنون يقبلون على الشراء بشهية مفتوحة، متناسين أوجاعهم ومصائبهم وأحزانهم وما ينتظرهم، محاولين تجفيف دموعهم، وهم يحوزون أشياء جديدة مثل أطفال وقع عليهم العقاب فبكوا حتى احمرت عيونهم، لكنهم يكفكفون دموعهم ويمسحون عيونهم وأنوفهم الدامعة، وهم يحتضنون لعبة جديدة ويتطلعون إليها بعيون تفيض من الدمع ،ثمة رخاء اقتصادي ما يزال، رغم ظروف الحرب .اكتظت البيوت بالثلاجات والمجمدات وغسالات الملابس والصحون وأجهزة التلفزيون والفيديو وأجهزة التسجيل والمكانس الكهربائية ومكيفات الهواء والساحبات وفتاحات العلب

والسشوارات والمكاوي وأواني الطبخ. وكانت الدولة تضخ السلع المستوردة من أرقى المناشئ العالمية، علامات تجارية مشهورة و كانت وكالة محروس متخصصة بالملابس الرجالية والنسائية والأدوات المنزلية ولعب الأطفال، لكنه لم يكن يبيع الملابس السود. الأميرة خلعت ثياب الحداد على ابن عمتها قبل شهرين من عقد قرانها ،لكن الألوان المشرقة رفعت من لائحة الملابس النسائية بشكل عام واستعيض عنها بالرصاصي والنيلي والكحلي والبني وهي كلها تقرب من ألوان الحداد .كان هناك لون موحد للجميع احتراما للون الأسود سيد الألوان يومذاك.

كانت الأميرة تقترب من البيت ،تمشي مطرقة تنظر نحو الأرض.. لا بد أن أمراً ما يشغل بالها، الإعداد للمستقبل وشراء ما يحتاجه بيتها الذي سيكون. اليوم جاء أهل طالبة لأخذها إلى البيت . صعقت الفتاة، تحول وجهها إلى عينين مفتوحتين برعب، حاولوا التخفيف عنها إلا أنها أدركت كل شيء، خانتها رجلاها .. فتهاوت، أخذوها إلى غرفة المديرة ،سكبوا على وجهها شيئا من الماء.. استفاقت، حملها أخوها وأختها إلى السيارة. الأميرة بكت وبكت جميع المدرسات .. الأخ هو الأخ والمصيبة لغة مشتركة تجتاز الحدود بسرعة وتوحد الجميع. أنهت الشارع العريض ثم استدارت يمينا ثم شمالاً تناهي إلى سمعها ضوضاء لم تألفها ومع كل خطوة كانت الضوضاء تتحول الى بكاء وعويل وصياح بخطوات أخرى تحدد مصدر كل هذا..

الزقاق الذي يقع فيه بيتنا، خفق قلبها وامتقع لونها عاذت بالله.. يا ساتر..يا علي. . استدارت يسارا، نظرت إلى الأمام. كانت وجهاً لوجه أمام العلم وقد تحول إلى الأسود وسط جمع من العباءات السود. لم تشك لحظة واحدة ولم يطرق قلبها أمل.. وقعت الواقعة .. ناش المطر الأسود بيتنا، وجاءتنا حصتنا من الموت. تلقت ضربة غير متوقعة في الجناح. هي الآن مهيضة الجناح، كسيرة لا تقوى على الحركة.. تسمرت في مكانها بين الصفا والمروة.. لا صفا هناك، أقل من مئة متر بين بداية الزقاق والبيت الذي عنده تقف السيارة تحمل حصتنا من الموت مغلفة بالأسود. أقل من مئة متر لا غير .. صاروخ تشظى فتشظى قلب الأم.. أصابت الشظية الأميرة في المقتل.. لكنها لم تبك .. لم تقل كلمة، حتى كلمة آخ، ولم تعول. وقفت متخشبة أمام التابوت المكفن بالعلم الأسود، ولم ينزل من السيارة بعد.. كان الجيران والأصدقاء والمعارف منهمكين في فك الحبال التي توثق حصتنا من الموت إلى السيارة .. كانت تنظر إليهم بلا مبالاة وكأن الأمر لا يعنيها أو كأنها تشاهد شريطا سينمائياً أمام عينيها بحياد تام، ومن غير أن تتفاعل معه.. حاولت النسوة استدراجها إلى مربع البكاء حتى تنفس عما في صدرها، وحتى تسرب شيئا من هول المفاجأة .. لكنها كانت عنيدة، لم تستجب لأية إغراءات للبكاء.. كانت محايدة بدرجة تدعو إلى الدهشة .. لم يكن ذلك بإرادتها لكنه كان شيئا مفروضا عليها من الداخل،

نوع من نهي عصبي، حاله مرضية نمر بها عندما نضرب عن الطعام، فلا نأكل رغم الجوع .. هناك جوع ولكن ليست هناك شهية للأكل .. الحالة هي هي .. الجو مشحون بالبكاء .. عويل ونحيب وبكاء ودموع ونشيج ولطم صدور وخمش خدود، شعور منفوشة، وثياب مشقوقة عند الجيوب .. كل ذلك يغري بالبكاء، ولكن ليست ثمة شهية أو رغبة في ذلك . يممت صوب غرفتها.. وضعت حقيبتها جانبا.. وتخلصت مما في يديها من كتب ودفاتر ، فتحت خزانة ملابسها وأخرجت ثوبها الأسود الذي خلعته قبل شهرين، ظلت محتفظة به، كل عائلة يجب أن يكون لديها خزين إستراتيجي من السواد.. ثياب سود تدخرها للأيام الأكثر سوادا.. فالمعزيات في حركة دائبة.. من هذا البيت لذلك الزقاق حيث بيت آخر .. وربما تسافر الأمهات إلى المدن اللاتي تحدرن منها .. ليقدمن التعازي باستشهاد ابن عم أو ابن أخ أو ابن أخت .ارتدت الأميرة ثوبها الأسود وخرجت ساهمة عيناها قطعتا ماس تجمد فيهما الدمع ،لا ترى شيئا أمامها ولا تسمع، مجرد كتل سوداء وأصوات سوداء أيضا. تلقتها أمها، صرخت في وجهها لطمت خديها نادتها باسمها، بصوت يهز حجراً لو ناداه، صوت خرج من أعماقها.. لكنها لم تبك حتى لم تختلج عضلة في وجهها أو تبرطم مثلما كانت تفعل حين كانت صغيرة أبرطم أمامهاأشكيها تتهدل شفتها السفلى، تتحرك زوايا فمها في اختلاجات صغيرة ثم تنخرط في بكاء صاخب لكنها لم تفعل الآن

مارست حيادها المتعسف حتى أقصى حد ثم جلست مع النسوة وهن يحطن بالنعش الذي نضاعنه كفنه الأسودولاح الخشب الذي يحمل حروفا إنكليزية ،كان بقايا صندوق يحمل في داخله بضاعة مستوردة قماش أسود ربما أو بدلات عرس أو مشروبات روحية أو قذائف مدفعية أو أي شيء آخرقالت لها امرأة:

- ابكي يا ابنتي كما تفعل الأخريات .لاتظلي صامتة،هذا شيء سيلحق بك أذى ،البكاء يخفف عنك،ينفس عما في صدرك.

لكنها لم تفعل حدجتها امرأة بنظرة غريبة، قالت بصوت عال:

- أوف من بنات المدارس هذه الأيام. تترفع عن البكاء حتى على أخيها . تخاف على عينيها، يا ساتر، تف.

كانت امرأة غريبة من زقاق بعيد جاءت مع الأخريات للمشاركة، شأنها شأن الكثيرات اللاتي يتنقلن من بيت إلى بيت مجرد أن يسمعن بشهيد جاءوا به.. حتى يهرعن دون أن يعرفن ذلك البيت .. تلف عباءتها حول وسطها، عيناها مغرورقتان بالدمع، تبكي بحرقة، لكن الأميرة ظلت واجمة ،حتى بعد أن فتحوا التابوت لألقي نظرة عليه ،المرأةالغريبةهي نفسها التي أشارت بهذا..اكتسبت خبرتها هذه من عشرات المرات التي حضرت فيها مراسيم مشابهة.

نظرت إليه في صندوقه الخشبي بعد أن رفعوا الغطاء الخشن الموشوم بحروف إنكليزية،أدنت الأميرة وجهها ونظرت في وجه شقيقها المستريح في مهده الخشبي بلا حشية تقى ظلوعه

وظهره قسوة الخشب، ولا مخدة ترفع رأسه، أما هي فكانت مثل طبيبة تعاين جثة أمامها، جثة إنسان لا تعرفه جاءوا به إليها في ساعة متأخرة من ليل، وهي في ذروة نعاسها وتعبها.ظلت تحدق فيه، سافرت خلال قسماته ،نظرت في عينيه المغمضتين بجلال نبيل ثم انحدرت بنظراتها نحو عنقه وصدره، وصلت الخاصرة اليمنى حيث تركت لطخة من دم في الأرجاء .فجأةعرتهاهزة ارتعد جسدها،وانخرطت في بكاء هستيري متشنج، بكاء غير مألوف بالمرة. سكتت النسوة وفسحن لها بالمجال لتبكي كما تشاء،ران صمت رهيب ليس فيه إلا صوت نحيبها المتشنج مختلطا بدموع غزيرة جرت علىعيني الزين ،وانحدرت علىخديه صرخت المرأة الغريبة:

– اللهم صل على محمد وآل محمد. الشهيد يبكي لبكاء أخته، تعالين انظرن دموعه تنساب على خديه.

نظر الجميع بما فيهم أنا إلى الزين المسجى في تابوته. كانت الدموع تبلل خديه وشاربه الأشقر، تنحدر من عينيه المغمضتين، لكنها دموع الأميرة ،رأيتها تنساب من عينيها إلى عينيه، إلا أن أحداً من النسوة لم يخامره الشك بأنه يبكي .انتشرالخبر بسرعة وجاءت وفود جديدة من النسوة لا للمشاركة بالعزاء ولكن لرؤية الشهيد يبكي لبكاءاخته كنت متيقنا بأن شيئا من هذا لم يحدث. لكن أمه قالت إن ذلك شيء ممكن وروت أكثر من واحدة بأن حالات مشابهة قد حدثت وقال أحد رجال الدين في الفاتحة:

– لماذا تستغربون أمرا كهذا؟ أليس الله بقادر على أن يبعث الموتى؟ فهل يعجزه أن تنحدر الدموع من عيني شهيد؟

نظر في وجوهنا طويلا نظرات تحوي دلالات اتهام ،ابتسم

– أليس الله تعالى هو القائل ،وقوله الحق،أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم.ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون.صدق الله العلي العظيم ،ألم يقل الحق تبارك وتعالى يا إخوة الإيمان إنهم أحياء أليس الحي قادراعلى البكاء،ألا نبكي نحن الأحياء؟فلماذا لا يبكي الشهيدوهو حي يرزق نثلنا؟ كيف إذن تستكثرون الدموع عليه اللهم صل على محمد وآل محمد ردد المجتمعون بعده .

عليك أن تسكن جحراً في رأس العين أو جبل الجوفة أو جبل القلعة أو جبل التاج، ترضى أن يمتهنك الآخرون وأنت صلب كالفولاذ محاط بالحصارات ،لا حصار واحد. وطنك يحاصره أبناؤه العاقون ،وأنت يحاصرك الجميع هنا،حتى الذين كانوا في خانة الأصدقاء، تحولوا عنك في تجمعاتهم بوعود السفر إلى سماء غير سمائك التي ما طاولتها سماء..

هناك تعليمات بالمقاطعة بعد أن فشلت الجهود في ضمك إلى السرب الذي يصنعون لهم الأجنحة ليطيروا بها بعيدابعيداإلى المنافي ،في صحارى الضياع مثل حبة رمل في كثبان الرمل.أنت تكره الأسراب بعد تجربتك المريرة قبل ربع قرن،وإلالبقيت تحت سمائك التي أحببتها فرفضتك،كرهت السرب هناك وعشت بعيداً

وكرهت السرب هنا وعشت محاصرا. عليك أن تعيش هنا بين نارين ،نارالغربة والبعد عن الأهل والوطن .ونارالحصارات ومحاولات الاستلاب .عليك أن تقنع بالقليل من أجل الأفواه التى خلفتهاهناك تحت الحصارالوطني الرائع!

ليالي الصيف، ننام على سطح السطح من أجل نسمة هواء. كل ليلةعند الحاديةعشرة تندلع رائحة شواء تملأ الجو عبقا لحم وشحم والناس لم تذق اللحم،من بيت جارنا بالجنب.لي بنيات كزغب القطا،أسمع في الظلمة أنوفهن وهي تغترف الرائحة بنهم مثل أنوف القطط .يا الله ماذا أعمل؟ أمد يدي للناس.

حدث الأصمعي قال:

مررت بأحد سكك الكوفة، سمعت صوتا يقول :

- تأدبي، وإلا رميت بك في شر من هذا .

تلفت، فلم أر أحدا..

ثم نظرت .. وإذا بكنيف مفتوح داخله رجل، علمت أنه صاحب الصوت ،قلت له:

- من كنت تحدث يا هذا ،ولم أر حولك من أحد..

- كنت أحدث نفسي، بعد أن رأيتها تمانع.

- قلت : وهل هناك شر من هذا؟

- قال : نعم .. سؤال الناس.

قلت أنا :

إلمن تريد الحيل يا بو سكينة...

ياء

يجدر بي
أن أنسى الحزن
يأبى الوجه الباسم أن يغدو ذكرى
يا للاسم المنقوش فوق شغاف القلب
يوسف
يوسف
يوسف
يوسف لم يأكله الذئب
يحمل قميصه دما كذبا
ألقوه على وجه الشيخ فارتد بصيرا
يا من يأتيك بقميص خلفه يوسف
في شعب ناء
يمم..
يا قلب صوب كردمند واهتف
يوسف
يوسف
يوسف
لعلك ترتد بصيرا..

في كل المآتم تصدح مكبرات الصوت بسورة يوسف،قراءة عراقية توجع القلب .يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن .. تفرض على الحزن جواً من الحزن. ما حكاية هذا الاقتران بين يوسف والحزن؟

لكن قصة يوسف انتهت نهاية سعيدة..أخرجه الله من السجن وجاء بأبويه من البدو . رفعهما على العرش فخروا له ساجدين.

أردنا أن نسميه يوسف، هكذا خطر ببالي .. لا أدري لماذا ؟ اسم مبارك، اسم نبي ابن نبي من سلالة أنبياء مباركين وجميل أن يحمل الإنسان اسم نبي، أمه رفضت، احتجت بقوة وقطبت ما بين حاجبيها وهي في يوم نفاسها الأول ..والطفل بلا اسم يرقد إلى جانبها قطعة لحم أحمر.

هكذا هي الحياة ندخلها مكرهين ،نواجهها بصرخة لعلها صرخة احتجاج على الخروج من جوف الرحم الآمن، ندرج بلفائف بيض ونودعها بغصة مكرهين فنلف بخرق بيض أيضا تروح طعاما للأرض.

تذكرت ولم أكن قد نسيت أن لزوجتي أخا اسمه يوسف ،لكن إخوته لم يجعلوه في غيابة الجب،ولم يأتوا أباهم عشاء يبكون،لأنه بلا إخوة كان،فقد جاء بعد ثلاث بنات متتاليات الواحدة على رأس الأخرى .كانت العائلة متعلقة به وقد بدأ يعرف الضحك،ابتسم في الشهرالأول وبدأ يكركر في الشهر

السادس يديرعينيه في الوجوه يتعرف إليها يختزنها في ذاكرته..

كان خاطر الذئب يقلق الأب الذي ربّى بناته على حكايات كثيرة ، حكايات من القرآن وحكايات من ألف ليلة وليلة ، وحكايات مثل المياسة والمقداد والزير سالم وأبو زيد الهلالي. يجمعهن كل ليلة صيفاً وشتاء ،وقد ينضم إليهن أبناء وبنات العم، ويروح يحكى لهن حكاياته الجميلة بأسلوب ممتع يحسن فيه فن التشويق ،كان يتوقف ليلف سيكارة ثم يدخنها والعيون معلقة بشفتيه متى ينطق ،يختار ذروة الحكاية فيتوقف ،تظل الوجوه متطلعة إليه ترجوأن ينهي صمته الثقيل أو يفتعل أزمة سعال .. فتنطلق الأرجل الصغيرة لتأتي بقدح الماء يشربه ويحمد الله ثم يبتسم ويتابع سرد حكايته.حتى إذا أحس أن الوقت قد حان، أخرج ساعته المعلقة بسلسلة في جيبه، يفتح غطاءها المعدني وينظر إليها ،يبتسم، يواصل حكايته حتى الذروة التي تخفي وراءها مفاجأة سارة، أوغير سارة، عندها يتثاءب ويعلن انه سيكمل الحكاية غدا.. تصاب الوجوه بالخيبة لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئا إلا الانتظار إلى الليلة القادمة.

قد تكون الحكاية معادة مرة بعد مرة على مدى الأيام والأشهر والسنوات، وقد يكون الجميع يعرفون تكملتها ويعرفون النهاية السعيدة أو غير السعيدة ، لكن لا أحد بالمرة يسمح لنفسه أن يخرب حلمه الجميل، وأمله في معرفة تلك النهاية.

حكاية الذئب الذي لم يأكل يوسف .. ظل هاجسه الدائم.. منذ أن أطلق هذا الاسم على ابنه الذي جاء بعد ثلاث بنات.. لم يبح بهاجسه لأحد، كان ينظر في وجه ابنه، يقرأ المعوذات حوله أكثر من مرة في اليوم، هو لم ير الذئب في حياته إلا مرة واحدة قبل سنوات من ولادة يوسف ابنه، كان مع جماعة من صيادي الأسماك يجتازون مفازة بين هورين، لاقاهم الذئب في الظهيرة . كان كبير الحجم شرسا،و كانوا أربعة .حاول مهاجمتهم . وقفوا في وجه،ضربوه بالمرادي على رأسه ،فرهاربا .اليوم لا ذئاب في المدينة،الذئب لم يأكل يوسف،إخوته هم جعلوه في غيابة الجب ولا إخوة ليوسف الصغير الذي بدأ يتعلم الكلمات..

لكن الذئب كان في البيت يعيش بينهم، يقاسمهم الضحكة والابتسامة، ويتنصت إلى أحاديثهم وحكايات الأب من غير أن يعيروه انتباها.. فالمرء قد يؤخذ من حيث لا يحتسب .. يتخذ الاحتياطات .. يتحرز، لكنه الحذر قد يأتي من مكمنه.. كان الذئب أسود لاصفا بلون الكحل الأزرق .. عقربا بطول الكف، يرفع ذنبه بخرزاته المتعددة وينتهي بإبرة السم... كانت البيوت يومها بحيطان عارية ..يكشر فيها الطابوق عن أنيابه المتآكلة. الفراغ بين الطابوقة والطابوقة.. بين الساف والساف مثل كهف غائر، قد يذهب إلى الجهة الأخرى من الجدار، وقد ينفتح على الغرفة المجاورة أو على الجيران.. وكانت الحيطان مأهولة بالعقارب من مختلف الأعمار والأحجام،تشق الصغار ظهور

أمهاتها،تموت الأم وتخرج الصغار، صفراء صغيرة ثم تكبر..يتحول لونها إلى لون الكحل الأزرق اللاصف.

كانت السقوف من الأعمدة والبواري ،وكانت مستعمرات للحيات الصغيرة والكبيرة.. كنا نشاهدها ترمقنا بعيونها الخرزية المدورة المغرقة بالكحل ،تخرج إلينا ألسنتها وهي تلتف حول نفسها وتتمدد .واحدة سقطت ذات يوم صائف ونحن نتناول طعامنا ظهرا .راحت تتموج قرب صينية الطعام، لم نعرها انتباها لملمت نفسها وانطلقت إلى جحر في الحائط وتوارت. كانت أمي تؤكد أن حية البيت لا تؤذي وكانت تمنعنا من التعرض عليها..

العقارب هي الأكثر لؤما ،كانت ترصدنا في الظلمة، تخرج رافعة شولاتها المسمومة في الهواء.. لدغني أحدها وأنا عند الحب، أشرب الماء ذات ظلمة .حتى إذا صرخت وهرعت مبتعدا أحسست بلدغة أخرى، هذه كانت من العقرب ذاتها، أو ذاته أم من أحد أبناء الطائفة، لدغة العقرب تشعل الجسم فيلتهب ،كان علينا ان نضغط فوق مكان اللدغة، نمنع السم من أن يصعد إلى الأعلى . ثم نخدش المكان بالموسى.. يخرج الدم ، نمتصه عن طريق الفم ثم نمجه..

يوسف الذي بدأ الكلام،كان صغيرا لما يزال في قمائطه، دون السنة، نائما في مهده الخشبي، صرخ فجأة بصوت ،فهب الموتى خائفين ،هرعت إليه أمه ،أم زوجتي مجنونة.سقط قلبها .يوسف

هوخال الزين الذي رفضت أمه أن يحمل اسمه أشعلت الأم اللمبة نظرت إلى ابنها يكاد ينفجر في سكرة من صراخ.

اسم الله يا ولدي..

اسم الزهرة أم الحسنين.

هكذا كان النسوة يفعلن ليبعدن الشر عن الأطفال.

لكن الطفل كان ثملا في صراخه .. حلت أمه القمائط فتوقف قلبها.. صرخت .. كان الذئب الأسود بلون الكحل الأزرق اللاصف ملفوفا بالقمائط .. سقط بين قدميها مع قلبها، تناوشته الأيدي مسحته بالأرض .. لكنه كان قد أكل يوسف.

تجمعت النسوة بعد سماع صراخ الأم والأخوات الثلاث.. كثرت الإشارات والآراء. أشارت إحداهن أن يسقى القهوة المرة، لكن أحدا لم يفكر بأخذه إلى المستشفى في الحال ،وماذا يفعل له المستشفى؟ واصل صراخه الملتاع وهو يبحث بقدميه. في الطريق إليه كف عن الصراخ. تحول إلى قالب من ثلج.

– لا .. قالت زوجتي .. كلّ اسم إلاّ هذا ..

سميناه زيدون، لكن اسمه الحقيقي اختفى وراء كلمة الزين.. صار ذلك اسمه الحقيقي ولكن .. هل حماه هذا الاسم من الذئب. لحقه مصير يوسف.. أكله الذئب في كردمند .شظية صاروخ معاد تركت فجوة عند الخاصرة بحجم الكف.. ظلت تنزف دما على دكة التغسيل .. حشاها المغسل بالقطن.

يا قلب .. هل كنت تعرف ما ينتظر الزين؟

قالت له أمه؟

– لن أدعك تذهب .. ارجع معنا..

تشبثت به يوم الرحيل وأنا لا أعرف الغيب، وإلا ما مسني السوء.. لو عرفت لكنت عدت به إلى البيت بأية وسيلة ، كنت أخفيه في تجاويفك أيها القلب، منعته من النزول أساسا والرد على هاتف بعد منتصف الليل، بل لقطعت أسلاك الهاتف ولألغيت اشتراكي بالهاتف بالمرة.. ليس لدينا هاتف .. عندها لا يجدون وسيلة للاتصال به، ينتظرونه ساعة أو بعض ساعة.. ينادون بالأسماء .. نعم.. نعم.. حاضر،إلا هو ثم ينطلقون إلى وجهتهم. أما هو فيستيقظ مثل كل يوم، وهو لا يدري شيئا عن حركة جماعته التي جاءت مفاجئة.. أوامر عسكرية لا نقاش فيها. يتناول فطوره الذي تعده له أمه، يرتدي ملابسه العسكرية، يلمع حذاءه ثم ينطلق مع خيوط الفجر الأولى إلى وحدته في المحاويل، يدخل الباب النظامي يتوجه إلى وحدته ،لا أحد ٠الدار بلاقع، لقد رحل الجميع ٠٠يبتسم بخوف، كيف حدث هذا. ليس هناك أوامر بالحركة حتى ساعة نزوله بعد الظهر.. سجلوه غائبا لا شك، وبعد ثلاثة أيام يدخل حالة الهروب.. يتجول في الوحدة بعض الوقت.. يعاين أهداف كرة السلة التي نصبها، تناهى إلى سمعه أصوات النقيب عمار والملازم جعفر، وضحكاتهم وهم يلعبون، وطبطبات الكرة وارتطامها بلوحة الهدف وانزلاقها عبر الشبكة وارتطامها بالأرض .. طب .. طب .. طب. يغادر إلى

الحانوت .أصوات الجنود وأصوات تحريك الشاي بالملاعق .. لا أحد .. لا أحد. ماذا يفعل؟

جاءه نائب ضابط من وحدة أخرىكان مارا بالمصادفة، يعرفه .

- متى غادرت وحدتنا سيدي؟

كان نائب الضابط يعرفه .. يحبه .. قال له:

- قبل السحور بقليل، كانت حركتهم مفاجئة .. .

- ليس لدينا تلفون في البيت .

- تستطيع أن تلحق بهم .

- والطريق؟ .. ليس عندي إجازة

- سأتدبر لك الأمر ..

غاب ربع ساعة، ثم جاءه بنموذج..

- إجازة ثلاثة أيام.. بعدها التحق بوحدتك، في كردمند .

عاد إلى البيت، ضاحكا .. قضى أيام الخميس والجمعة والسبت.. غادر يوم الأحد بشكل هادئ .. حمل حقيبته الصغيرة وذهب إلى كراج النهضة .. من هناك إلى كركوك .. في الساعة الثانية بعد الظهر سقط صاروخ إيراني على وحدة الصواريخ التي سبقته إلى كردمند .. سقط قبل رحبة العجلات وتشظى .. لم يتشظ قلب الأم.. الزين في كركوك كان..

حدث حادث طريق للزين،خرج صباحا،ذهب إلى المحاويل، إلى وحدته.. رن جرس الهاتف في البيت ضحى أو بعد الظهر، المتكلم شخص لا نعرفه، رفعت الام سماعة الهاتف.

– من مستشفى المحمودية .. أختي .

سقط قلب الأم بين قدميها.

– هذا بيت سعيد مسعود؟

– نعم .. أخي .. تفضل..

كانت تتكلم بصعوبة، تقطعت أنفاسها من فرط الخوف .

– حدث لابنكم حادث .. بسيط إن شاء الله..تأكدي أختي.. بسيط جدا.. اصطدمت السيارة التي يستقلها بأخرى.. الحمد لله أغلقت الأم السماعة . اتصلت بي، جئت مسرعا، ذهبت إلى المستشفى، سألت دلوني .. دخلت عليه الردهة. وأنا غير مصدق ،استقبلني بابتسامته،كانت ذراعه مربوطة إلى رقبته.

– الحمد لله على سلامتك

– بسيطة يا أبي.. رضوض في كتفي .. والذراع.

اتصلت بالبيت.. طمأنتهم.

بعد يومين، خرج من المستشفى بإجازة شهر كامل .. وحدته تحركت إلى كردمند .. سقط صاروخ وراء رحبة العجلات.. تشظى .. لم يقتل أحدا ولم يتشظ قلب الأم.

تأخر الزين ولم يعد من وحدته في الوقت المحدد.. قلقنا ، ثم قلنا:عسكرية، من يدري؟ ربما صارعنده واجب..اتصل بعد قليل.

– أنا موقوف في مركز شرطة الأمل..

– لماذا؟

– سأشرح لك.

ذهبت إليه..

- ضرب جنديا معه بعقب المسدس..

- ليس لديه مسدس .. قلت.

قرر قاضي التحقيق توقيفه لمدة أسبوع.

لم أمنعه من النزول والرد على الهاتف، ولم أخفه في أي مكان كما طلبت أمه، لم يحدث له حادث طريق، وكان لدينا تلفون في البيت، لم ألغ اشتراكي ولم أقطع أسلاكه، لم يحدث أي شيء، تركته يفعل كل ذلك ويذهب. سار كل شيء مثل سيناريو مكتوب بدقة، أو مثل برنامج في الحاسوب .هناك حاسوب كوني أضخم من شبكة الانترنت بما لايحصى من المرات تسير فيه الأمور بدقة متناهية، حتى أن أي تغيير أو تعديل أو إلغاء لأية خطوة أو حركة يؤدي بلا شك إلىتغييرات في النتائج لكن القدرالمقدورلايسمح بأي تغيير أو تعديل أو إلغاء لأية خطوة أو حركة حتى يتحقق ما قدَر..

لو..

لو..

لو.. حرف امتناع لامتناع..

حين وصلت السوق، شاهدت فتى فوق الثامنة عشرة من عمره وسيما جميلا مثل شطب ريحان . يحمل على ظهره زنبيلا كبيرا علقه برأسه ذي الشعر الأشقر كحقل الحنطة.. جمع فيه ما

اشترته خادمة سيريلانكية وراح يسير وراءهـا . عرفـت أنـه عراقي، وهل يحمل الزنبيل غير العراقي؟

– سألته: ما اسمك

استغرب أول الأمر ثم قال.

– عروة

– عروة بن الورد.

– أبي يقول ذلك.. كان

– وأين أبوك؟

– تحت الأرض ،في النجف، كان شاعرا وصحفيا

– لم يغن مع السرب..

نظر إلى بعجب وقال:

– كيف عرفت .. هو كان يقول ذلك دائما.

تألمت كثيراً، تابعته وهو يسير وراء الخادمة السـريلانكية، حاصرني البكاء.

– دعني أرافقك حتى نهاية الشارع على الأقل

_لا .. لماذا تتعب نفسك يا أبي؟

رأيته لأول مرة، فارعا ، بهيا بهذا الشكل، بشعره الأشـقر . بدا متضايقا، أنا أعرفه، احتضنتني واحتضنته نظرت في عينيـه بثبات، فلم يقاوم ،سحب عينيه ،فتوارتا وراء رموشه الطويلـة. حدقت في سنه الأمامية التي فقدها في لعبـة كـرة قـدم مـع أقرانه،فعوضها له الطبيب بسن صناعية، هو ابني عينه. قالـت

إحدى النساء المتقدمات بالعمر،افتحوا التابوت ليلقي أبوه عليه نظرة .كانت محقة في ذلك.. فكثيرا ما يقع الاشتباه والخطأ غير المقصود في توزيع الموت ،يرسل جثمان شهيد إلى غير أهله .. حوادث كثيرة.. بعضها يدعو إلى الدهشة. استلمت عائلة جثمان ابنها الشاب، صندوق مغلف بالعلم . جاءوا به على ظهر سيارة، وضعوه في صحن الدار، تحلقوا حوله .. حين فتحوا الصندوق فوجئوا برجل فوق الأربعين ، أصلع الرأس شائب اللحية. .حين فتح أهله التابوت الآخر وجدوا جثمان شاب في العشرين، مسألة اعتيادية تلك الأيام لا تختلف كثيرا عن إرسال رسالة إلى غير صاحبها. مجرد تشابه في العناوين أوالأسماء ،مثل أن يأخذ أحدهم غير حقيبته وهو نازل من القطارأوالطائرة أوالسيارة، وحين يفتحها يفاجأ بأشياء نسائية ،ملابس وإكسسوارات. مجرد تشابه في لون الحقيبة أو حجمها، لا فرق. المسألة، بريد أو حقيبة .نظرت إليه بإمعان، حدقت في وجهه، في عينيه ،في شاربه الأشقر،شفتيه المبتسمتين بسلام .نظرت إليه أمه والأميرة والأسعد .نظرالجميع إليه. كان نائمافي مهده الخشبي قلت له:

– احترس يا ولدي .. ستذهب إلى منطقة لم ترها من قبل ولم تطأها قدماك.. جبال وأودية وغابات لا تدري مكمن الخطر..

قبّل أمه وإخوته وأخواته.كنا ذات خميس، لكنني بقيت عند الباب واقفا ،بقينا واقفين ترافقه عيوننا خطوة خطوة وهو يغذ

السير في الزقاق الصغير مصعدا شمالا حتى وصل نهاية الزقاق.. هل صحيح أن الميت يلتفت نحو أهله وهو على دكة التغسيل؟ كان ممددا على الدكة ،بهيا .. مهيبا.. بدا لي عملاقا . شعرت بالفخر رغم مأساوية الموقف الذي يكتنفني .. فخرت أنني أنجبت رجلا كهذا .. كان المغسل منهمكا في عمله وكنا ننظر إليه أنا وأعمامه وإخوته . منعنا الصغار من الدخول إلى المغتسل .. بدأ المغسل أولا بتمزيق البدلة العسكرية، استعمل في ذلك سكينا طويلة.. ربما سيستخدمها في تقطيع الخيار أو الطماطة في أثناء الاستراحة.. ثم نزع البدلة وكومها جانبا.. لا شك أنها ستذهب إلى المحرقة بشريطيها الأسودين عند العضد الأيمن ،ومعها الكفن الملطخ بالدم، ثم جرده من ملابسه الداخلية،وبدأ يصب الماء،لكن الجرح ما يزال ينغردما قانيا، صبغ الدكة وسال خيوطا باهتة نحو الساقية التي تأخذه بعيداً مع دماء الآخرين.. ثلاثة أيام والجرح ينغر دما .. كان عند الخاصرة اليمنى .. عند المقدمة .. دقيقا ثم تحول إلى خرق واسع في الخلف.. صاروخ تشظى فتشظى معه قلب الأم قبل أن تصيب الشظية منه الخاصرة من الأمام لتخرج من الخلف .. استشعر قلب الأم عن بعد فأعطى أوامره بإعلان حالة الحداد التام حتى قبل أن يقع المقدور.. كيف كان حين فاجأته الشظية، هل كان واقفاً؟ .. جالساً؟ وماذا كان يفعل ..هل فكر بي، بأمه .. هل كانت بينهما حالة من التلباث.. ربما كان ينظر إلى الجبال

أمامه التي يراها لأول مرة في حياته.. قمة كردمنـــد الشـــهيرة، الشاهقة، التي اغتالت، ابن عمته قبل عام ونصف. وحين عجـــز المغسل عن إيقاف النزف ، أخذ كمية من القطـــن وحشـــا بهـــا الفجوة عند الخاصرة من الخلف.. إنه يمارس عملا روتينيا، مثل أي عامل يقوم بعمله بهمة ونشاط.. وليست هذه بالطبع الحالـــة الأولى التي تصادفه خلال خدمته الجليلـــة فـــي تغســـيل مـــوتى العراقيين، بعد أن انخرط الجميع في المحرقة .. كـــان يرتـــدي صديريا ازرق بلون التراب، تغلق فتحته عنـــد الصـــدر خيـــوط متشابكة.. ربما كان وهو يقوم بعمله يفكر بزوجته التي تركهـــا في الصعيد وبأبنائه وجاء ليملأ الفـــراغ .. ربمـــا كـــان يعمـــل بالقطعة ولا شك أنه سيفرح عندما تتصاعد وتيرة الإنتاج، كذلك يفعل حفارو القبور وأصحاب مكاتـــب الـــدفن المنتشـــرون فـــي إمبراطورية وادي السلام، أو وادي الغري التي أخـــذت تتســـع وتمتد شرقا وغربا شمالا وجنوبا بعد الفتوحـــات التـــي حققهـــا كليب.. فصرنا نسمع بشرق البصرة وشرق دجلة بانتظار شرق بغداد أو شرق السدة.. وبعد أن صارت دولة الحاكم بأمره توزع قطع الأراضي على المواطنين، لا ليبنـــوا عليهـــا دورا تـــأويهم وأولادهم بل لتؤسس عليها قبورا تضم رفات الأبناء والإخـــوان والآباء والأعمام على شكل حيازات خاصة لا يجوز لأحد التجاوز عليها والدفن بها إلا لأصحابها المسجلين في محافظـــة النجـــف أومحافظة كربلاء ،وبذلك اتسعت مملكة المـــوتى فـــوق الأرض

على شكل قبور ذات أبراج عالية من الطابوق الناري وعلى شكل أقفاص أو غرف بأبواب وشبابيك وأقفال ..

كان المغسل منهمكا في تدليك الجسد المسجى بالماء والكافور.. وكان يحاول أن ينتهي من عمله بسرعة.. فقد يصله رزق جديد أية لحظة . ومن غير المجدي اقتصاديا أن يتركه يروح لغيره .. فهناك موازنة دقيقة بين العرض والطلب، بين القادمين لإمبراطورية وادي السلام وبين القائمين بعملية التغسيل والدفن. ومع ذلك كان يقوم بعمله بمهارة فائقة فهناك العيون ترقبه، وهناك أمل بإكرامية بعد الانتهاء من العمل .. لم يترك نأمة دون أن يغسلها باهتمام ،نقب بين مشابك أصابع الرجلين واليدين وحول المناطق المحرمة.. فعل كل ذلك بدأب وإخلاص ونحن نتابعه، ولا أدري لماذا كنا ننظر إليه بالضبط ، هل هناك مسألة شرعية؟ لا أدري، لكننا كنا نراقب الموقف وكل واحد منا يفكر في موضوع خاص. فليس من المعقول أن نظل جميعا نراقب ونحن نحصر تفكيرنا في موضوع واحد.. أعترف أنني شغلت أول الأمر بالنظر إلى ابني المسجى على دكة التغسيل بين يدي مدلك جاء عبر مئات الكيلومترات، وشعرت بالفخر، لكنني سرحت بأفكاري لا أدري كيف وكما أسرح أنا ويسرح غيري ونحن نقف بين يدي مليك مقتدر نؤدي صلاتنا بخشوع .سرحت بأفكاري نحو مناطق غير مأهولة بالموت.. فكرت بالعامل الذي جاء يسد الفراغ وعائلته التي تنتظر

تحويلاته بالدولار الأمريكي من حين إلى حين..هل تعلم هذه العائلة أن ربها أو ابنها يعمل في تغسيل الموتى وأن رزقه يتناسب طرديا مع الشبان الذين يسقطون في جبهات الوغى مضرحين بدمائهم وعليه أن يسد الفراغ الذي تحدثه الشظايا في الخواصر والبطون والصدور والظهور بالقطن.. وبعد انتهاء ساعات العمل، وبعد أن يتعب يأخذ سكينه الطويلة التي استعملها في تمزيق البدلات العسكرية الخشنة مخافة أن يسرقها زملاء العمل في النوبة القادمة، هنا يحتاج السكين ذاتها ليقطع بها البصل والطماطة والخيار.ثم فكرت بالسيد حميد أبو أصيبع الذي دفن جده جدي .. ودفن هو أبى وقد يدفنني أو ابنه فكرت بسيارته البيضاء الفارهة وهو يجوب أنحاء المقبرة يدل ذوي الشهداء الذين دفنهم إلى قبور ذويهم حين يأتون بزيارات إلى المقابر أيام الجمعة على وجه الخصوص أو يقوم بالإشراف على عمليات الدفن الجديدة بواسطة فريق العمل من ذوي الفؤوس والكركات بوجوههم التي لا تختلف كثيرا في لونها عن لون التراب وعيونهم المنطفئة.. واحد من رجال الأعمال الموسرين مكتب فخم قريبا من المطعم الفاخر على تخوم المغتسل ، المطعم الذي يتناقل الكثيرون أنه يعود إلى الخال المقعد الذي وصلت خيوط شبكته الإستثمارية إلى المقابر بعد أن طالت كل شيء، من التجارة بالأراضي والبساتين والدور والعمارات، إلى إستثمارات المصانع والمعامل.. وبعد أن وجد أن تجارة الموت رائجة تدر

ذهبا .. ففتح مطعما فاخرا .. وصارت له حصص في مكاتب الدفن المنتشرة في إمبراطورية وادي السلام.. ليس من الغريب أن يفكر الآخرون مثلي، فلكل همومه ومشاغله وتطلعاته .. كانت عيوننا تراقب وأذهاننا تعمل خارج الزمان والمكان حين صدمتنا المفاجأة وسحبتنا جميعا بقوة إلى مربع اللحظة الراهنة بكل أبعادها. رأيت، رأينا رأس ابني الشهيد الزين ينفلت من بين يدي المغسل وينظرإليّ، إلينا. كان المغسل قد وضعه على جنبه الأيمن وراح يدكله، فانفلت الرأس الوجه من بين يديه وراح يحدق في .. فينا بعيينين مفتوحتين على مصراعيهما.. أنا .. نحن صعقنا.. وصرخت صرخنا اللهم صل على محمد وآل محمد.. أقسم أكثر من واحد أن الشهيد نظر إلينا بكل عينيه المفتوحتين وأنه كان يبتسم .. سمعت مثل هذا عن أمي قبل عقود.. وحدثتنا حديث صادق أنها وحين كانت المرأة المغسلة منهمكة بتغسيل أختها انفلت الرأس من بين يديها وراح ينظر نحوهن، وقالت إنها حدثتنا حديث صادق إنها رأت الدم ينبجس من معصم الأخت الميتة حين انكسر المعضد الزجاجي فيما كانت المغسلة تحاول نزعه من يدها، لكنه وقبل أن ينتزع يده من يدي ابتسم بحياء، ولمعت عيناه السوداوان ببريق عذب.. بريق غريب من نوع لم آلفه .. للعيون لغة لا نعرفها نحن بني البشر.. فيها تتركز طاقة إيحائية تعكس الداخل.. العيون ربما تفهم بعضها، فتتراسل والشفاه صامتة ، ربما قالت لي عيناه

وداعا.. دون أن يقصد هو ذلك .. إنهما مرتبطتان بالحاسوب الأعظم الكلي العظمة ومنتهاها الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. علمت عيناه دون أن يعلم بما سيقع فقالتا إن هذه هي النظرة الأخيرة.. أنا لم استلم الشفرة جيدا وقلب الأم استلمها قبلي وقبل أن تقع الواقعة.

عيناه هاتان كانتا مغمضتين بهدود جليل مثل عيني نائم في سابع نومة لا فرق وشبح ابتسامة يرفرف على شفتيه اللتين احتفظتا بلونهما الوردي برغم الموت.لم يكن وجهه يحمل أية علامات تنم عن ألم أومعاناة.كان نائما بهدوء جليل داخل مهده الخشبي حتى توهمت أنه يمثل علينا دوره الذي كان يلعبه حين كان صغيراً ..يتمدد .. يسبل ذراعيه ويغمض عينيه كالنائم الميت أو كالميت النائم..وحين يتحلق حوله إخوانه وأخواته الذين هم أصغر منه يحملقون في وجهه يحاولون إضحاكه أو إيقاظه، يظل ساكنا سكون الموت النوم، لا يريم ثم ينتفض فجأة صارخا في وجوههم الصغيرة بضحكة مجلجلة ،كانوا يهربون فزعين يرتعدون مع أنهم يعرفون أنه يمثل ،حتى لو أعادعليهم المشهد ذاته أكثر من مرة، كان هذا يوجب تقريع أمه بأنه يرعب الصغار وربما سبب لهم صدمة ما.هكذا تخيلت أنه سينتفض ويطلق في وجوهنا ضحكة هادئة هذه المرة. ويغادر مهده الخشبي واقفا على قدميه .ينفض بدلته مما لحق بها من غبار.

كان مثل فتى قد عاد للتو من المدرسة

فأغفى هنيهة

بانتظار أمه..

أن تعد له الغداء..

إنه في حالة جوع لا يوصف ، مرت عليه ثلاثة أيام لم يأكل خلالها شيئا، كان أول من استشهد في وحدته ،من غير قتال،لم يسهم في إعداد أو إطلاق صاروخ واحد ومن غير أن يطلق طلقة واحدةكان في وحدة للصواريخ ،هذا ما عرفته منه حسب. لكنني لا أعرف مهمته.. وما علاقة الإدارة والاقتصاد بالصواريخ، لكنها الحرب،لا تعرف الحدود والقوانين والأنظمة والتخصصات الجندي هو الجندي دائما يخدم في الوحدةالتي تحتاجه.يدخل إليهامن هذا الباب ويخرج من الباب الآخر،وقد شكل كما تريد الوحدة أن يكون نموذجافي قالب خاص ..

كان قليل الكلام غير ميال للأخذ والرد معي فقط ربما ،يكتفي دائما بإجابات مقتضبه نعم .. لا .. صحيح.. الحمد لله .. زين.. وكان يكثر من ترديد كلمه زين حتى صارت لازمة له.. وصارت جدته تسميه الزين لوضاءة وجهه أيضا، حتى أننا نسينا اسمه الحقيقي.. ربما كان يخجل مني فقد عثرت أخيرا على شريط مسجل بصوته. لم أعرفه في البدء .. لكن أمه قالت : إنه هو كان يلقي النكت على إخوته، وكان يمثل لهم أدوارا حفظها من أفلام الكارتون.. ومن برنامج افتح يا سمسم . كان يقلد صوت بدر أحد شخصيات المسلسل المعروفة.

قال لي أصحابه إنه كان رياضيا جيدا.. وكان بطل لعبة كرة السلة في وحدته وهو الذي روّج لهذه اللعبة بعد أن أنشأ بمساعدة آمر الوحدة ساحة وأهدافا واشترى كرات وراح الجميع يلعبون كرة السلة عند الصباح حتى الضباط وجدوها فرصة طيبة للمحافظة على لياقتهم البدنية وحتى يتخلصوا من الوزن الفائض . وحين اختفى في عطفة الزمان، أشارت علي أمه أن نذهب بعده.. وأن نقتفي أثره ونراقبه عن بعد، لأنها تريد أن تشبع من شوفته، لكنني رفضت ذلك لأني أعرف كم يسوؤه إن التفت ورآنا نسعى وراءه في جوف الليل.. هي أصرت ،أعلنت أنها ستذهب وراءه وستأتي به ولا تدعه يذهب إلى مصير مجهول.. حاولت إقناعها لكنها أصرت،وقررت المضي قدما وراءه وحين نقلت قدمها وراءه كان على أن أذعن لرغبتها .. وصلنا عطفة الزقاق التي اختفى عندها ، ثم دلفنا يمينا إلى زقاق آخر قصير لم يلبث أن انتهى بسرعة لندلف يمينا أيضا إلى شارع عريض يؤدي إلى طريق المرور المتجه شرقا ثم شمالا . كنا نمشي ببطء وحين حدقنا في الظلمة عن بعد، رأيناه يغذ السير بخطوات سريعة مخافة أن يتأخر.. أنا أعرف التزامه جيدا.. كان يحرص على الذهاب إلى وحدته باكرا ليصل قبل الجميع لكنني لا أدري كيف اكتشف أننا نقتفي أثره .. لقد اكتشفنا .. توقفت .. توقفنا . . حاولنا الاختباء وراء بعضنا واحداً وراء الآخر.. أردنا أن نكون كتلة واحدة في الظلام فما

استطعنا، رأيناه يستدير ليتجه نحونا. تسمرنا في مكانينا لا نستطيع العودة لأننا بذلك نضطره إلى قطع مسافة أطول عندما يريد العودة وربما نؤخره عن جماعته.

– رأيت ، ما فعلنا به . سيتأخر عن جماعته..

لكنها شرقت بدموعها.. رأيت عينيها في الظلمة مثل قطعتين من دم لم تستطع أن تقول شيئا ولا كلمة واحدة .. لكنها كفكفت دموعها وقالت:

– أريد أن أشبع من شوفته.

– ليس هو الأول.. ولا الآخر ..

– الآلاف يشاركونه مصيره هذا ،الخير لنا أن نعود . لملمنا خطواتنا المبعثرة .. أدار كل منا عقبه لنبدأ رحلة العودة نحو البيت.. لكنه كان اقترب منا، ابتسم بود.. أو حاول أن يجبر نفسه على ذلك.. كان متوترا جدا، كما رأيت.

– لماذا تتعبان نفسيكما.. عودا إلى البيت.

– لا .. قالت أمه .. عد معنا .. لا تذهب إلى المحرقة..

ضحك بهدوء..

– أعود معكما، كيف؟ أهرب؟ ارجعي يا أمي.. لا تفضحيني في هذا الليل.. خذها يا أبى بالله عليك . .أنت تعرف الواجب .

لكنها لم تشأ أن ترجع .. تقدمت منه، احتضنته .. اتحدت به وهي تحاول أن تسحبه إلى المربع الآخر .. مربع العودة باتجاه البيت.. بدت أقوى منه وهي تجره إليها . كانت تبكي وهي تقبله

.. أغرقته بدموعها.. مشى معها بضع خطوات ليخفف عنها جهدها في سحبه، ثم توقف.

– ما هذا يا أمي؟ كيف تفكرين بهذا الشكل؟ تريدنني أن أهرب ثم ماذا؟

– اجلس في البيت .. سأخفيك في عيوني.. لن أدعك تذهب لتموت في أرض لا تعرفها.

– من قال هذا ؟ من قال إنني سأموت.. الناس يذهبون إلى الجبهة يحاربون ويعودون إلى أهلهم في إجازات ثم يذهبون إلى الجبهة ويعودون إلى بيوتهم مرة بعد مرة ولا يموتون.

– ابن عمتك .. مات وابن عمك .. وعمك ابن عم أبيك، مات الكثيرون منا ولن أدعك تذهب لتموت مثلهم.

– عندها سأموت رميا بالرصاص، سيعدمونني في المحلة أمام الجيران والأصدقاء إن هم قبضواعلي متلبسا بالهروب ، سأجلب العار لك يا أبي.. ولإخوتي وأبناء عمومتي.

– أعوذ بالله .. يا بني.

التفت إلى زوجتي .. قلت لها..

– كفى،دعيه يذهب بسلام ،لا تكدري خاطره أو تؤخريه عن جماعته. لانت بعض الشيء ،اقترب صوت طبل السحور منا .. تخيلته يقول:

يا أمنا كفّي الدموعا..

وانتظري لي رجوعا..

كفكفت أمه دمعها.. احتضنته لآخر مرة.. وفجأة حدث ما لم يكن بالحسبان أبدا . أطلقت هلهولة في جوف الليل الصائف.. استشاط الزين غضبا.. لكنه كظم غيظه، رأيت رؤوساً تطل من السطوح على جانبي الشارع ،رؤوساً رجالية صلعاء وأخرى لشباب.. فتحت الأبواب محدثة جلبة وسط هدوء الليل ، وأطلت نسوة ورجال وأطفال يتعلقون بأذيال أمهاتهم مرتبكين وهم يغالبون نعاسهم .. كان منظرا مربكا .. جاء ضارب طبل السحور وبدأ يضرب بحماس، اقترب مني وهو يقول:

– تريدون زفة ؟ لديكم شهيد .. يرحمه الله.. أنا حاضر.. فرقة موسيقية فاخرة.

نظرت إليه بغضب تقدمت منه زوجتي أخذت بتلابيبه..

– فال الله ولا فالك يا..

ثم توقفت، ابتلعت لسانها وسكتت..

انسحب ضارب الطبل باستخذاء .. ذهب إلى شارع فرعي وبدأ يضرب بغير حماس، رحت أتابعه وهو يتلاشى.. مال الموقف نحو الهدوء .اختفت الرؤوس من على سطوح البيوت، أوصدت الأبواب دون أن يجرؤ أحد على التدخل ،فهم الجميع ما يحدث عادوا جميعا إلى أسرتهم، تمشينا نحن الثلاثة.. الزين يتوسطنا سرنا بهدوء حتى نهاية الشارع .. التفت إلينا.

– كفى .. لقد أتعبتما نفسيكما من أجلي. ما هذا يا أمي. أنت امرأة مؤمنة وعاقلة ، وما نزال نتعلم منك. هيا امضيا راشدين..

في أمان الله، قبلته وقبلها.. عدنا ،لكننا كنا نلتفت بين الحين والحين .. ثم لم نره. غيبته عطفة الزمان عطفة الزقاق.

مررت أمام مقهى السنترال ..تناهت إلي أصوات العراقيين وضربات قطع الدومينو، شممت رائحة الأركيلات والسكائر والأحاديث الهامسة .من هنا ينطلق الجميع إلى المنافي الاختيارية، إلىأمريكا وبريطانيا وكندا والسويد والدانمارك والنرويج واستراليا ونيوزلندا وهولندا..

بعد أن يجتاز البعض طريبيل ويصلون إلى عمان يسألون عن مقهى السنترال يصعدون إليها وهم لا يعرفون أحدا .. ولكنهم يتعرفون خلال أيام ،وبعد أسبوع يناقشون في البنيوية، وبعد شهر تقيم لهم جمعية مكافحة القوارض أمسية يتحدثون فيها عن تجاربهم الشعرية، الصحف تغطي هذا النشاط المهم للغاية وتكتب عنه، مع صورة كبيرة للشاعرأو القاص ،كل هذا جواز مرور للوصول إلىالأمم المتحدة للحصول علىاللجوء .لم أصعد إلى المقهى لأنني اعرف معظم الجالسين ويعرفني جميعهم ،وقد تحدثت قبل قليل في جمعية أصدقاء الكتاب ولم يغط الأمسيةإلا صحفي صديق يعمل مراسلا لجريدة تصدر في لندن.. وأنا لا أريد جوازا إلى المنفى فأنا لم اتخذ عمان مقرا ولا مستقرا هكذا قلت حين سألني صحفي عن رأيي بالنشاط الثقافي المدينة.

دخلت سوق السكر .. ثم خرجت أحمل أكياسا سودا ملأتها بالطماطة والخيار والباذنجان والخبز، فائدة الأكياس السودا أنها

لا تفضح من يحملها، الكل سواء حامل الفراولة والكرز والأناناس يتساوى مع حامل الشلغم والجزر والفجل لحق بي رجل يلف رأسه بيشماغ غير نظيف ويضع على عينيه نظارة طبية ويحمل على ظهره زنبيلا كبيراً يشده إلى رأسه قال لي:

- عمي .. أوصلك للسيارة.

نظرت إليه بأسى وقلت له:

- أية سيارة يا نسيبي.. وكل غريب للغريب نسيب.. يا ابن وطني الموزعون أبناؤه على القارات الخمس أو الست لقد تركت سيارتي في بغداد.تقدمت خطوات،كنت وجها لوجه أمام حسين العلوي قلت له:

- أين وصلت قضية سفرك؟

- عند مكانها الذي تركتها فيه حين رأيتني قبل شهر.. ذهب الجميع إلا أنا.. الذين قدموا طلباتهم قبلي ذهبوا.. والذين قدموا طلباتهم بعدي ذهبوا. أنا لا أحب الذهاب إلى أمريكا.

- والنتيجة؟

- أريد الذهاب إلى كندا أو أستراليا.

اقترب مني رأيت وجهه اكتسى حمرة على خضرة، قال لي :

- ثلاثة أيام ونحن لم نأكل زوجتي و أنا ...

قطعت الشارع نحو نصب الحوريات، ثم دلفت يسارا باتجاه الشابسوغ. جبال من الحزن تراكمت توزعت خارطة الوطن المحاصر بالفقر والقتل وقرض الآذان وبناء القصور الضخمة

والجوامع التي تخترق الواقع إلى الخيال والأحلام، والجوع والصبية الذين تركوا المدارس ولجأوا إلى الشوارع ، صباغي أحذية وبائعي سلع كمالية عند الإشارات الضوئية، والعجزة المسنين في كل مكان وبائعي الكلى أمام مستشفى الخيال.. أي حصار هذا يا إلهي الرحيم، تطوف الشوارع جنائز الأطفال الذين ماتوا جراء الحصار الظالم بعد أن لم يجدوا الدواء وأطنان الأدوية تذهب إلى الطمر الصحي بعد انتهاء تأريخ صلاحيتها، أي حصار هذا يا إلهي الودود والأسواق تغرق بأنواع الويسكي، مختلف الماركات والمناشئ وبأصناف السكائر الفاخرة من كل مكان وبالسيكارالهافاني المصنوع خصيصا للنخبة، السيكارالواحد يعادل ثمنه راتب عشرة موظفين في الشهر..

الحزن كالمطر .. هناك خارطة للحزن تشبه خارطة توزيع المطر.. الحزن تركز في الجنوب والوسط.

كان الحزن طقسا سنويا يحتفل به كل عاشوراء .. هل هناك مهرجان للحزن في العالم ؟ كان لدينا ذلك قبل السبعينات. وكانت الإستعدادات لهذا المهرجان تبدأ مع هلال السنة الهجرية .. تخلع المدينة العمارة كل ثيابها الملونة وتتلفع برداء الحزن. تغلق دور السينما الثلاث أبوابها، وتقفل محلات بيع الخمور، تحرم العلكة والكرزات ويسود المدينة جو من الحزن، يستمر المهرجان لعشرة أيام. تقام الطقوس على شكل مواكب جرارة يشارك فيها الجميع .. الشباب والشيوخ والأطفال .. تشد

الدشاديش السوداء بأحزمة حول الخصور . ثم تخلع من فوق الكتف، لتكشف عن الجزء الأعلى من الجسم، يتباهى الشباب باستعراض عضلاتهم، يلطمون صدورهم بإيقاع حزين أو يضربون ظهورهم بالسلاسل الحديدية.

القارئ يردد المرائي الحسينية الحزينة، وعند نهاية كل مقطع يضرب الطبل بإيقاع حزين ترافقه صنوج لها طعم النحاس المر وبوق جنائزي: توت.. توت.. حيدر.. يلطم المشاركون في المواكب صدورهم، وهم يزحفون ببطء حزين، وحين يقترب الموكب من شارع بغداد وهو ساحة الاحتفالات المركزية يزداد اللاطمون حماساً .. المتفرجون يصطفون على جانبي الشارع .. رجالا ونساء يراقبون المواكب التي تتقدم عبر الشارع الممتد بين جسر الكحلاء ونهر دجلة .. هناك فيض من الأضواء الباهرة تصنعها المولدات الكهربائية التي تطلق هديرا ناعما حزينا هو الآخر مثل خلفية صوتية أو مثل موسيقى تصويرية تضفي على المشهد جوا من الشجن والجلال. كل موكب له مولده الخاص يتولى سحبه اثنان من الشبان يتوقفون حيث عليهم أن يفعلوا ذلك.. ولكل موكب شعاره الخاص. فموكب محلة الماجدية وهي محلة صيادي الأسماك لهم شعارهم على شكل سمكة عملاقة محاطة بكثير من المصابيح الوهاجة، تفتح فمها بأسنانه الكثيرة وفي داخله مصباح أحمر.. وموكب الجَديْدة سفينة شراعية مزدانة بالمصابيح أيضا فيما كان موكب محلة

السراي جامعاً صغيرا بمنارة وقبة يتردد فيه الأذان عدة مرات بصوت خافت وكانت تحمل من قبل الشباب الذين يتنابون عليها، فهي ثقيلة.. وكان للصابئة موكب خاص.يتقدمه كبارهم بلحاهم الطويلة المستريحة على صدورهم ويشاميغهم الحمر وهم يلطمون صدورهم برفق يتبعهم عدد من شبابهم الواجمين حزنا على وفاة سبط الرسول يرددون المراثي بصوت هادئ معبر.الحسين رمز إنساني عظيم يحظى باحترام كبيرالجميع قلت للزين: أتذكر شيئا من هذا ؟.

الصبية الصغار بعد الثامنة عشرة ما يزالون صغاراً يحلمون بأمهاتهم وآبائهم ويتعلقون بهم. كانوا يفرون من الخدمة العسكرية، يختبئون في بيوتهم ،خوف أن يتخطفهم الذئب.

ذئب يوسف كان فرية ابتدعها إخوته الأعداء .. لكن ذئب كردمند لم يكن كذلك وهناك على الدوام ذئب حقيقي يترصدنا.

الصبية الهاربون من الخدمة العسكرية يظلون متخفين عن الأنظار.. يعودون إلى الرحم الآمن حيث الظلمة والسكون .

- كيف .. هل تريدينني أن أهرب؟

- أضمك في عيوني، في تجاويف القلب.

الزين لم يهرب.. ولم يلجأ إلى الرحم.. صديقه معتز فعل ذلك.. اختفى.. لا أحد يعرف مكانه، شأنه شأن الكثيرين، البعض قضى أشهرا أو أعواما لم يبصر ضوء الشمس في حفر تحت الأرض .. مثل الملاجئ العسكرية .. هناك سجن وهنا سجن،

لكن هناك خوف وتعذيب وضرب، وهنا أم .. هناك ظلمة وظلم وهنا رحم ورحمة. ربما يخرج البعض منهم لساعة أو ساعتين حين تنقطع الحركة ويخفت كل صوت. يستنشقون هواء غير معاد. ثم يعودون إلى ملاجئهم بعيدا عن العيون التي تجوس خلال الطرقات تبحث عن الهاربين والمتخلفين عن الموت. إنهم صبية ما زالوا، حتى وإن وضعت في جيوبهم دفاتر الخدمة العسكرية. بدأوا يحلقون لحاهم قبل سنة أو سنتين، صاروا يحدقون بالفتيات بنهم، وبدت عروقهم تنبض بإيقاع خاص، يصابون بالارتباك ويتلعثمون وهم يكلمون ابنة الجيران أو ابنة العم، تصطبغ خدودهم وآذانهم بحمرة الخجل وتدق قلوبهم بعنف. كانت بينهم أسرار ورسائل مكتوبة بلغة رديئة استلوها من كتب الرسائل الغرامية المتداولة، البعض ممن أخفق في دراسته انخرط في مهن متعددة، تعتمد المجهود البدني غالباً، عمال بناء غير ماهرين يحمل الواحد منهم مئات الكيلوغرامات من الطابوق والإسمنت والرمل والحديد كل يوم، صعودا ونزولا .. أو حمالين في الشورجة أو سوق جميلة لا في سوق السكر بعمان. يمشون بانكسار ذليل وراء خادمة سيريلانكية. البعض الآخر يعمل عند مصلحي السيارات ليكتسبوا مهنة تؤهلهم لخوض الحياة في المستقبل . ويكون لهم صنف محترم في الجيش يبعدهم عن الخدمة الفعلية في الخطوط الأمامية.كنت أحدث الأميرة والزين والصغار عن ذلك ساعات انقطاع التيار

الكهربائي في ليالي الصيف.. وحين يضيق صدري كنت أقف عند الباب الخارجي .. الزقاق مظلم.. تلتمع عيون القطط مثل مصابيح وهاجة.. يقترب مني بعض الشبان من أصدقاء الزين وأخيه يسلمون علي باحترام، ويسألونني عن بعض ما يعترضهم من مشكلات في الدراسة.. بل كنت أتوسط لبعضهم عند الأصدقاء من المعلمين والمدرسين.. لكن الكثيرين لم يكونوا ليفلحوا في الدراسة.. أخفقوا في المرحلة المتوسطة وهم يرددون أن الدراسة لم تعد مجدية ما دامت العسكرية بالانتظار .. كنت أحاول أن أثنيهم عن اعتقادهم هذا لكن من غير فائدة .. معتز صديقهم رسب في الصف الثالث المتوسط .. ترك مقعد الدراسة إلى فرن الصمون.. كان يقول لي إنه يكسب أكثر من راتب المعلم في الشهر .. كبر معتز بسرعة كما كبر الآخرون .كانت سنوات الحرب تمضي بطيئة مملة ثقيلة .. لكن السنوات خارج إطار الحرب كانت تمضي بسرعة مذهلة .. هكذا كان الشباب يحسون بها.. وهكذا كنا نحس بها نحن الآباء والأمهات.. كنا نتمنى لأبنائنا ألا يكبروا.. أن يتوقف نموهم وأن لا تظهر لهم لحى وشوارب.. كان آباؤنا يفرحون حين يروننا نحلق لحانا.. لقد كبرنا.. وصرنا رجالاً نعينهم على أعباء الدنيا.. أما نحن فعلى العكس .. كان البعض من الطلاب يتعمدون الرسوب فلا ينتقلون من صف إلى صف. يقضون المرحلة الدراسية بضعف السنوات المقررة وكانت قرارات

الدولة لئيمة وضعت سقفا زمنيا لكل مرحلة.. من لم يستطع اجتيازه يذهب إلى المحرقة.

كان معتز صبيا أصغر من الزين بأربع سنوات.. أغمض عينيه وفتحهما فوجد دفتر الخدمة العسكرية في جيبه.. أنا نفسي استغربت، نظرت في وجهه غير مصدق ،لكنه مد يده وأخرج الدفتر وقد عمل له محفظة من الجلد.. إذ عليه أن يحمله معه أنى ذهب.. يبرزه لكل من يطلبه من الانضباط العسكري أو دوريات الحزب.. بسرعة فائقة جرى سوقه للخدمة، وبسرعة أكبر أنهى فترة التدريب، هو لم يصدق كيف أن الأيام تمضي بسرعة.. كنت ألحظه كل مرة وقد ازداد نحولاً وشحوبا، بدا خائفا، لحظت ذلك في عينيه .. كانتا تعكسان رعبا لا مثيل له وقلقا.. فقدتا بريقهما وصارتا غائرتين مثل عيني شيخ هرم خبت فيهما شعلة الحياة.

كان يأتي مع الزين إلى البيت، يسلم على بحياء لا مثيل له .. وحين أغمض عينيه وفتحهما وجد نفسه أمام الالتحاق بوحدته الجديدة.. مكان لم يسمع به..

- وحدتك في كردمند...

أعطوه كتابا.. وقالوا له : التحق خلال ثلاثة أيام.

بهت .. ولم يعرف نطق الاسم . سألني..

- أعرف أنها في الشمال،قلت، لكنني لا أعرف مكانها بالضبط، سمعت بها ،قمة جبل على ما أعتقد..

امتقع لونه .. وسألني:

- كيف الوصول إليها؟

- بالسيارة بالطبع.

حاولت أن أخفف عنه . ابتسمت وقلت:

- الجيش يعرف مكانها.

ابتلع ريقه بصعوبة .. نظر إليّ غير مصدق.. كما لو أنني أنا الذي أريد أن أرسله إلى كردمند التي لا يعرف عنها شيئا،كان في عينيه رجاء أن أمنعهم من أن يرسلوه إلى هناك .. كان يعتبرني شيئا كبيراً .. ربما يحسد الزين أن له أبا يتذكر أباه جيدا.. كان موظفاً كبيراً .. وكان له أصدقاء كثيرون يزورونه في البيت يتحدثون حول أمور كثيرة، لكنه اختفى منذ سنوات.. اختفى فجأة دون أن يخلف أثراً . . قالت له أمه:

- أبوك..سافر..

- إلى أين؟

- الله وحده يعلم..

- أذكر جيدا.. ذلك اليوم.. كنت صغيراً ذهبت إلى المدرسةوكان هو يتهيأ للذهاب إلى الدائرة.

جاء الغداء ولم يحضر ثم جاء العشاء .

- نعم..

- ألم يخبرك أين كان يود الذهاب؟

- ألم تسأليه؟

- لا..

- إنك تخفين عني أمراً، لقد كبرت ،آن لي أن أعرف.

- أبوك ...ثم سكتت..

- مابه ؟

- لا أدري دعني في همي يا ولدي .

- قولي شيئاً..

- يقولون إنه صعد إلى الشمال ، ربما هو الآن في بلاد غير بلادنا.. ربما تزوج فكان له زوجة وأولاد.. وربما هو في مكان ما من شمال العراق .. وربما هو في مكان من بغداد وربما مات.

- لا.. كان يقول لأمه .. ثم سألني:

- الشمال هو المكان الذي ذهب إليه أبي؟

نظرت في عينيه السوداوين مثل قطعتين من ليل ،قلت له:

- الله أعلم يا ولدي. .

- هل ذهبت إلى الشمال؟

الزين قال له :

- أنا ذهبت إلى الشمال مرة في سفرة مدرسية .

قال باستغراب :

- الناس هناك ما أشكالهم، هل هم مثلنا؟

- عراقيون مثلنا، آباء وأمهات وأولاد وهم يحبوننا ونحبهم.

- لماذا يرسلوننا إليهم .. هل هم أشرار؟

- نحن لا نذهب إليهم، هم يكرهون الحرب مثلنا.. لا أحد يحب الحرب يا ولدي..

بدا غير مصدق نظر إلي..

- أنا أخاف الحرب ،أكره أن أموت، أين يذهب الإنسان بعد أن يموت.. في التدريب لم أطلق طلقة واحدة. أنا أكره البندقية.. لا أحب حتى أن ألمسها شتمني العريف وركلني ببسطاله الضخم وشتم أبي، قال لي كلب ابن الكلب ،ركلني ثانيةعلى خاصرتي .. كنت ملقى على الأرض أتألم.. هو يوالي ركلي لأني لم أتعلم كيف اسحب الترماس .. أليس هذا اسمه؟

ابتسمت وقلت له:

- لا .. اسمه التراس.

-بالباء لا بالميم .صرخ العريف في وجهي.كلب ابن الكلب كم مرة قلت لك ترباس لا ترماس ..بالباء ،بالباءلابالميم،هل فهمت يا حمار؟ بالباء، لا بالميم.لكنني لم أفهم ،وكان هومجبراعلى إعطائي هذا الدرس القاسي، كان نائب الضابط والضباط قريبين منا.

بعد انتهاء التدريب، ناداني، اعتذر مني وطلب أن أسامحه .. قلت له وإن لم أسامحك .. قال لن أنام الليل .ابتمست وعاتبته على شتم أبي الذي كان موظفاً كبيراً في الحكومة ،لكنه اختفى فجأة. حزن العريف كثيراً نظرت في عينيه، كان صادقاً قال لي :

- أنا عمك مثل أبيك..

كانت عيناه تومضان بألق غريب رأيت شيئا مثل برق خـــلال سواد الليل.

- لن أذهب إلى الحرب .

- تهرب؟ قال الزين

- نعم، أهرب .. أختفي .. قال بخوف.

اختفى معتز ..لم نعد نراه.. مضى أكثر من شـــهرين ،كـــدت أنساه، في يوم سألت الزين:

- ألم ينزل معتز بإجازة؟

- أية إجازة؟ معتز لم يلتحق ..

- كيف؟

- هو في البيت لا يغادره.

- تلتقيان ..

- في الليل وعلى فترات متباعدة .

جاءني ذات ليل مع الزين .. قلت له.

- لى متى تظل على هذه الحال؟

- خير من أن أموت ، أشم ريح أمي.

- وهل تستطيع أن تظل طويلا ؟

- حتى تنتهي الحرب .لا بد أن تنتهي ذات يوم.

- كلنا نعرف البداية ،كننا لا نعرف النهاية. الحرب كالحياة يا ولدي نعرف متى ولدنا .. ولكننا لا نعرف متى نموت.

بعد ثلاث ليال لا غير جاءني الزين شاحبا

– ألقوا القبض على معتز..

– كيف ؟

– بلاسم وشى به، جاء بمفرزة ألقت القبض عليه .. منذ مدة طويلة وهو يحوم حول الدار،سألني اكثر من مرة وهدد بأخذي إلى الفرقة الحزبية إن لم أخبره .

– الكلب.. لماذا لم تقل لي ذلك ؟كنت سأهينه .

بعد ثلاث ليل لا غير سمعنا صراخاً في جوف الليل.. هرعنا في الصباح علقنا لافتة سوداء خطت باللون الأصفر تنعى الشهيد البطل معتز محمود.ذهبت معهم لدفنه في النجف .شخص لا نعرفه منعنا من الدخول إلى المغتسل لمشاهدته على دكة التغيسل. الخبر تسرب بسرعة،سربه المغسّل.هز رأسه عجباً..

– مر غريب .. لم أر موتا كهذا..

– كيف؟

لم نعثر على أثر لأية إطلاقة أو شظية ولا أثر لجرح..

– مات مخنوقا .. مثلا .. قلت له..

– لا .. وجدت صدره مخسوفا .. أضلاعه مهشمة .كل ذلك كان على هيئة حذاء عسكري ضخم.

– ماذا ، حذاء عسكري ضخم؟

– نعم .. كما لو أن أحدهم وضع رجله على صدره وضغطها حتى وصلت طبعة الحذاء إلى ظهره ،كان الرجل الغريب اختفى..

في الفاتحة قال أحد الجنود من وحدته،عثر عليه في الموضع ميتا .. يحمل ذلك التوقيع الضخم.. كتمت هذا الأمر عن الزين..

كانت سورة يوسف تلاحقنا في كل مآتم، سبع سنوات عجاف انقضت.. وحمد يوسف الله الذي بوأه في الأرض وجاء بأبويه من البدو .. لكن سنواتنا العجاف ظلت عجافا. أكلن ماحصدنا والثامنة أمر أدهى .. ولم نبوأ في الأرض.

– قال لي الزين وهو يحاورني:

– مسكين معتز يا أبى .. حلمت به البارحة حلما غريبا.

– كل الأحلام غريبة يا ولدي .. هي الروح تذهب لا تدري أين؟ بعيدا في اللازمان واللامكان

– حلمي أغرب يا أبي .. كنا نجلس معا، وقد عاد للتو من فرن الصمون يحمل معه بضع صمونات .. أعطاني واحدة .. كانت حارة،أكلتها وتلذذت بها،كانت لذيذة طيبة كأطيب ما أكلت.

– عطية الميت خير

– لكنه كان حزينا .. حزينا جدا.. قلت له ما بك؟ قال لي وهو يشير إلى صدره وبطنه .. أحس بآلام مبرحة.. في هذه المنطقة .. ربما أذهب إلى الطبيب.

– أضغاث أحلام يا ولدي.

– لا يا أبى لا اعتقد ذلك ، كان حلما غريبا مرتبا بشكل منطقي كأنه حقيقة.. لكن الغريب انه كان يرسم بإصبعه مخططا لحذاء كبير يشمل الصدر والبطن..

شعرت برجفة غريبة، حاولت أن أدراي، الزين لاحظ ذلك..

- ما بك يا أبي؟ هل تكتم عني شيئا؟

- مثلا..

- الحلم غريب.. بماذا تفسره يا أبي؟

- لا أدري .. الله أعلم .

- والأغرب . يا أبي أني قصصت عليك حلمي في الحلم.. كنت خائفا في الحلم .. وكنت أشك أن يكون ذلك محض حلم وأذكر أني صحوت عدة مرات، وأكملت حلمي لكنني، كنت خائفا من ألا يكون ذلك حلما... شيء غريب. .

- الأحلام عالم سحري غريب.. قد تكون استشرافا أو توقعا. دعنا من الأحلام وعالمها الغريب والآن احك لي كيف هي أحوالك في الكلية.

- سنة ونتخرج .. بعدها إلى العسكرية .. ترى هل يرسلوننا إلى الشمال إلى كرد مند.

عسى الكرب الذي أصبحت فيه يكون وراءه فرج قريب.

- لكن (فرج) مات وبقي كليب وحرب وعلّ وعسى والحرب تستعر وقودها الناس والخيرات. فالحرب تأكل كل شيء إلاّ الحجارة إنها تأكل ما لذ وطاب الناس والأخضر واليابس.

- ولكن متى تنتهي هذه الحرب؟

- الله أعلم.. كان يا ما كان في سالف العصر والأوان.

نظر في وجهي وابتسم..

– الحكايات الجميلة التي كنا نسمعها منك كل مساء.. كان معتز يحضر معنا أحيانا.. كنت تحبه كأحدنا، كان ياما كان.. وعلى الله التكلان،كان هناك خروف عنيد لا يريد أن يعبر النهر..

– آه .. الخروف العنيد حكاية جميلة .. انتهت بأن عبر الخروف العنيد النهر . . الخروف العنيد لا بد أن يعبر النهر. لكن حكايتي اليوم عن الحرب العالمية الثانية لم احكها لكم.. تقول الحكاية إن الحرب طالت حتى ملها الناس . الجنود وغير الجنود، ألا المستفيدين من كل حرب، طبقة أثرياء الحروب والسياسيون الكبار.. مع أنها كانت أقصر من حربنا هذه.

كان هناك سائق يعمل مع أحد الجنرالات في أوروبا، جنرال أمريكي أو بريطاني أو فرنسي. وكان اسم السائق جورج .

في يوم، قال أصدقاء جورج: قل لنا متى تنتهي هذه الحرب؟

قال لهم:لا أدري.فقالوا له: الست سائق الجنرال؟ قال: بلى.. قالوا: ألا تراه كل يوم؟من الصباح حتى ساعة متأخرةمن الليل .

قالوا: فاسأله .. قل له متى تنتهي هذه الحرب يا سيدي؟ لا بد أنه يعرف خيرا منا جميعا .. أليس هو جنرالا..

نظرإليهم جورج بإمعان،ثم قال:إنهاوالله فكرة لا بأس بها، الليلة وبعد أن أعود به إلى مقره. سأطرح عليه هذا السؤال.

في المساء دخل الجنرال مؤتمرا عسكريا . ظل جورج السائق ينتظره وراء عجلة القيادة حتى ما بعد منتصف الليل، حين خرج

الجنرال وقد استبد به التعب حد الإرهاق وهو يضع بيريته بكتافيته.. تقدم نحو السيارة وهو يلعن كل شيء ويصرخ:

- قل لي يا جورج.. متى تنتهي هذه الحرب اللعينة؟

ضحك الزين..

وانتهت الحرب العالميةالثانيةوانتهى الجنرال وكل الجنرالات.

في بيتنا الصغير ذاك في محلة الإسكان ولدت الأميرة .. خلفنا بيتنا في مدينة العمارة واتجهنا صعدا باتجاه الشمال نازحين الى بغداد كما نزح مئات الآلاف من أهل الجنوب الموبوء بالإقطاع والخوف والقهر .

كانت الأميرة البكر،ولأنها كذلك، ولأن عائلتنا لم تعرف صغيراً فيها منذ عشر سنين او اكثر فقد كان الاحتفاء بها مبالغا فيه . جيراننا بالجنب لم يكن لهم اطفال ايضاً مجموعة من الاولاد والبنات والشباب في سني ،وكان اصغرهم فتاة في الثانية عشرة .. كانت تاتي الينا كل يوم تجلس مع الاميرة تلاعبها حتى اذا اشتد عودها .. كانت تاخذها معها الى بيتهم .. تلعبان معا .

ذات مستشفى سالتني الاميرة عن ليلى .. أتذكرها يا أبي ..

- كيف لي أن أنساها .. ما الذي ذكرك بها الآن؟

- وهل نسيتها حتى أتذكرها.. من المؤكد أنها تتذكرني الآن. حلمت بها البارحة رأيتني في بدلة عرس ،شعري لم يسقط يا أبي هل سأستعيد شعري، هل عرفت ليلى أنني في المستشفى؟

– بالطبع ،بالطبع،ستستعيدين شعرك بعد أن يزول أثر الكيماوي،شعرك السرح الطويل،بلونه الكستنائي، الطبيب قال ،أنا سألته ،فقال إنها أعراض مؤقتة ،ولكن لم تكملي الحلم..

– آه .. كنت أقول إنني كنت في بدلة زفاف بيضاء ،ليست بيضاء تماما بيضاء بلون زهر التفاح وشعري لم يسقط، حكيت لك ذلك.. ليلى بجانبي كانت .. وكنا فرحين جميعا .. أمي كانت معنا ، وأخواتي .. وصديقاتي نجوى وزينب وكريمة أنا لا أتذكرهن الآن .. لقد نسيتهن .. مجرد صور وأشباح لبنات صغيرات بشعور منفوشة .. من المؤكد انهن تغيرن الآن.. وربما تزوجن وأنجبن. أوه يا أبي مالي، لقدذهبت بعيدابعيدا ،لا أدري اين وصلت بالحلم.

– كنت ببدلة زفاف بيضاء بلون أزهار التفاح

– آه صحيح.. فجأة امتدت ذراع طويلة ،ليست ذراعاً بشرية ذراع غوريلا بشعر أسود كثيف ومخالب لا أعرف من أين أتت، خطفت البدلة البيضاء بلون ازهار التفاح وتركتني. بعد أن استيقظت كان الطبيب الإيرلندي ومعه الممرضة التي تسمى نفسها ناديا يقفان عند رأسي.. سمعته يقول لها بالإنكليزية يجب نقلها إلى غرفة العناية المركزة.

– حلم خير إن شاء الله، أين وصلت في قراءة كتابك؟

– النصف تقريبا .. رواية مذهلة ترى هل سأكملها؟

شعرت بقلبي يهبط إلى قدمي .رأيتها تنظر إلي وتبتسم بشجاعة لا توصف.

- آسفة يا أبي ،لقد أتعبتك أنت تحتاج إلى الراحة وانت في مثل هذا العمر، كان الله في عونك ،لقد شقيت حتى ربيتنا .. كنت أتمنى أن أكون لك جناحا.

وهل لي غيركم في هذه الدنيا ،أنتم زادي وعتادي ،أريد أن أزاكم في صورتي التي كم احببتها أريد أن أكون كذا وكذا طموح بلا حدود بعيدا عن المال والعقار .. لم أحلم يوماً بأكثر من سقف يظللنا ويقينا الحر والقر،ولقمة نظيفة تسد رمقنا. أنا طالب علم ،لا طالب مال ولا جاه وطالب العلم لا يشبع ،كم أحب اللغات، أتمنى حتى هذه اللحظة أن أتعلم كل لغات الأرض، أن أكلم كل من أراه بلسانه.

- الطريق أمامك مفتوح..

- لا يا أميرتي لقد تركت المستقبل وراء ظهري أنتم امتدادي نحو المستقبل أنتم الثمانية المباركون أنا أعيش ماضيا وحاضرا وحسب وليس لي طموح سوى أن أراكم قد شققتم طريقكم في الحياة وأن تعوضوا أمكم بعض ما سببته لها من أسى وحزن وألم.. ربما.

- ليس لدى أمنا غيرك .. لا أب ولا أخ لا عم ولا خال انت كل شي بالنسبة لنا وله

– لكنني لم أوفها حقها.. أنا أشعر بذلك.. امرأة مناضلة وقفت بجانبي كل سنوات الفقر والفاقة والخوف والحرمان كانت صبية في التاسعة عشرة من عمرها فحسب حين اضطلعت ببسالة نادرة ونكران ذات لا يوصف بمسؤولية عائلة كبيرة.. أب وأم مريضة وأربعة من الأخوة أصغر مني.. رعتنا جميعا بقدر متساو .. كانت جلدة شجاعة لم تسأم يوما ولم تغضب ولم تتأفف .. تخبز وتطبخ وتقسم الطعام بيننا بالتساوي .. كان الطعام شحيحاً .. وكنا لا نشبع .. وحين جئتم إلى الدنيا ازدادت مسؤولياتها، تنازلت عن كل شيء مما تتطلع إليه أية زوجة، تقشفت في الثياب ولم تخرج من البيت إلا في زيارات متباعدة إلى أهلها... لم تزر أحدا ولم يزها أحد.. أنتم لا تتذكرون ذلك، كنتم صغارا وكان الراتب محدودا والعدد يتنامى والأفواه مفتوحة.. ضاقت بنا الغرفة حتى تركنا العمارة.. خلفنا الجنوب وراءنا وصعدنا إلى بغداد.. كنت أحمل طموحي وأملي .سألتني أختك الصغرى قبل سنوات كيف تتصور نفسك يا أبي؟ كان سؤالاً ذكياً . وكانت الإجابة غير متوقعة .قلت لها بعفوية أتصور نفسي أركض في غابة جميلة ،أشجار عالية على الجانبين، الأرض ممرعة والسماء صافية وأنا أركض بصدر مفتوح وقميص ترفرف به الريح.

– أذكر ذلك .. أنا معجبة بك يا أبي.

– كل فتاة بأبيها معجبة.

- ليس دائما يا أبي كان لي صديقات يتحدثن عن آبـائهن بلهجة تفوح منها رائحة عدم الرضا.. بل إن واحدة كانت تدعو على أبيها بالموت، كانت تقول لي على الأقل نكـون مـن أولاد الشهداء.. ويكون لنا راتب كبير ونمتلك سيارة.

- كان أبوها عسكريا؟

- لا . كانت تتمنى أن يأخذوه في الجيش الشعبي .

- لا غرابة في هذا . . الدنيا مليئة بكل التناقضات

سمعنا طرقا خفيفا على باب الغرفة .. دخلت الممرضة ناديـا الإيرلدنية، حيتنا بأدب جم وقالت:

- غدا لديك جلسة لأخذ الصفائح البيضاء ..

نظرت إلي الأميرة.. وقالت بالعربية المكسرة:

- ماشاء الله عروس... عروس

شكرناها.. استأذنت وخرجت بعد أن تركـت بعـض الأوراق على المنضدة الصغيرة .

- لا أدري لماذا لدي هذه الشهية للحـديث .. عـن ليلـى بشكل خاص.. لقد التقينا أكثر من مرة.. عندما كنت مدرسة في العمارة.. قبل سنتين .كنت أزورهم في البيت، أبوها توفى.

قلت لي ذلك، وأخوها هاجر إلى بلجيكا.. كان فناناً كبيـرا هل تتذكرين رسوماته على حيطان البيوت في الإسكان.

- بالطبع الحصان كان لوحة فنية رائعة كنت أشاهدها إلـى عهد قريب، لكنهم أزالوها.

– نعم، كما أزالوا صورة عبد الكريم قاسم .. رسمها في الستينات، كانت ،لوحة بالحجم الطبيعي يراها الجميع من مسافة بعيدة، أزالوها .. لو كانوا يستطيعون لهدموا الجدار نفسه.

– نسيت أن أقول لك أعتقد أني حكيت لكم كل هذا .. ولكن لا بأس . أجدني مترعة بالذكريات أريد أن أتخلص منها.. حين رأتني ليلى .. أجفلت .. لم تعرفني أولا .. لكن ذلك لم يستغرق إلا جزءاً من ثانية. رأيتها تندفع نحوي .. وتجهش بالبكاء .. كانت فرحة وفخورة بي بشكل لا يصدق.. طلبت مني أن اقف إلى جانبها .. ففعلت ابتسمت برضا وقالت اللهم صل على محمد وآل محمد.. ياللسنوات كيف تمضي بهذه السرعة بالأمس كنت أضعك في حضني ثم أحملك على ذراعي هاتين وأضمك إلى صدري وها أنت اليوم أطول مني، لماذا لا تذهب يا أبي إلى البيت لترتاح قليلا ؟

– دعينا نتحدث إن لم يكن هذا يتعبك

– أبدا.. ولكن قل لي يا أبى هذا الأثر في رقبتي هل يزول؟

نظرت إليه ثم تحسسته بإصبعي.

– بل هو آيل للشفاء سيزول حتما وقريبا.

– أرعبني ذلك الممرض الأجنبي ،كان عليك أن تكون معي .

– أين؟ في غرفة العمليات انهم لا يسمحون بذلك،

- يدعى أنه مسلم من الباكستان، أشك في ذلك . أرعبني راقبته منهمكا في تعقيم الأدوات الجراحية يختلس النظر إلي بعينيه الخضراوين المرعبتين كانتا بلون مستنقع آسن..قال لي :

I am Musleman

- لماذا عملوا لي هذا الجرح في رقبتي؟

-من أجل الكانيولا.. انتهى دورها الآن .. رفعوها واندمل الجرح، إن هي إلا آثار خفيفة ستزول.

تعكر مزاجها، عرفت ذلك من خلال تقطيبة بين حاجبيها.

- ما كان لي أن أخلع الثوب الأسود.

- لكنه المستشفى هذه تعليماتهم، ثم ما فائدة اللون الأسود، الزين تحول إلى طائر من طيور الجنة مضى طاهر الأثواب. ولن يعيده الثوب الأسود. أمك ستخلعه أيضاً. نظرت إلي باستغراب.

- صحيح ؟ لا أظن ذلك ..قلب الأم.

- قلب الوالدين أقصد، هل ستذهبون إلى النجف ؟

- بعد أيام تحل السنة للشهيد .. سنذهب

- أتمنى أن أكون معكم.

- سنذهب جميعا في زيارة خاصة عندما تغادرين المستشفى زيارة خاصة إلى النجف وكربلاء وسامراء وسيد محمد.

ميم... دال

دع عنك لومي ولا تشمت
دار داهمها الحزن
دار ...دور...دار
دور، ماذا تقرأ يا قمراً من نور
أقرأ أسماء الله الحسنى
أتحدى أوراق الديجور
يا دفتر حب مصبوغا برائحة النار
ودم العاشق ينبت ورداً أحمر
دمع الأم
يغسل ملح العين
ودم القلب
دللول..دلّلول..
يا ابني الولد.. يمّه دلّلول
دع عنك لومي ولا تعتب
فالداء الساكن في القلب .
ليس له أي دواء
لا الدهر يقدر أن ينسيني
لا القلب يقدر أن ينسى
دار.. دور.. دار..
دور..
ماذا تقرأ يا قمراً من نور..

الخوف من دفتر الخدمة العسكرية يقض مضاجع الشباب .. الوثيقة التي تعني الذهاب إلى الحرب، إلى المحرقة حيث الموت أو تقطيع الأوصال أو الأسر، الموت في سبيل لا شيء . . لماذا نموت؟ يتساءل الجميع بلا استثناء.. لكنهم يذهبون بقليل من الاستثناء.. من أجل من ؟ لكن لا أحد يستطيع تمزيق دفتر الخدمة العسكرية في ساحة التحرير. ولا أحد يستطيع التخلف عن الذهاب إلى الحرب.. هرب البعض فكانوا عبرة.

يعمد الكثيرون إلى تمديد سنوات الدراسة، يواصلون الرسوب في الدراسة الثانوية أو الجامعية وحين يستنفدون السقف الزمني المحدد يلجأون إلى التقارير الطبية التي يحصلون عليها لقاء مبالغ كبيرة وبها يستطيعون تأجيل الدراسة سنة بعد سنةالدولة تنبهت إلى ذلك فحاربت هذه الظاهرة وجعلت الإستفادة منها محدودة ومقصورة على أناس معينين ومن مصادر محددة على أن الكثيرين استطاعوا بشجاعة نادرة أن يقولوا: لا للخدمة العسكرية، شجاعة فائقة لا شك، لكنها مؤسسة على الدفع، ادفع بالتي هي أحسن. وفق قاعدة جديدة اسمها ورِّق تسد تناصا على شعار فرق تسد المعروف أما ورق .. فتشير المعاجم اللغوية الحديثة إلى أنها فعل أمر من الفعل ورَّق يورِّقُ ومنه الورق والورَق هو النقود وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف فابعثوا أحدكم بورقِكم هذه الى المدينة. فالفعل إذن مستحدث، فللحرب لغتها ومصطلحها ويعنى عد النقود، أي الدفع

لقاء دفع أي مكروه.. وهل هناك أكره من الحرب التي تمر عبر دفتر الخدمة العسكرية.

التوريق على أنواع كما يقول العلامة حرب ابن الأمة.. البعض يتنازل عن راتبه الشهري لنائب الضابط لقاء إجازة أسبوع أو عشرة أيام ،والبعض يقدم خدمات لوحدته العسكرية ضمن اختصاصه، مواد كهربائية أو إنشائية أو صحية أو مكتبية أو ما يتعلق بالسيارات أو أي شيء آخر. البعض يعمل في بيت الضابط الذي يبنيه في بغداد. بناء أو حداداً أو نجاراً أو عامل تأسيسات كهربائية أو صحية أو يعمل في مزارع كبار الضباط أو حقول الدواجن التابعة لهم أو بحيرات الأسماك. البعض بنى بيتا للضابط.. من الأساس حتى المفتاح، وجهزه آخر بغرفة النوم والإستقبال والطعام .. وثالث بما يحتاج إليه الثلاجة والمجمدة والتلفزيون ومكيف الهواء، آخر اشترى سيارة للضابط أو أعاره سيارته يستعملها لمصلحته . هؤلاء كانوا ينعمون بحياة مدنية هانئة دون ملاحقة من رجال الانضباط العسكري أو مفارز الحزب عبر سلسة من الإجازات المفتوحة. أعلى قمة في هرم السلطة يعرف كل هذا، بل إن السلطة هي التي سهلت كل شيء وغضت النظر حتى يستفيد الجميع تحت شعار يابخته من نفع واستنفع.الزين كان من فئة ال ٩٥% الذين لم يستطيعوا الوصول إلى هذا المستوى من الشجاعة ليقولوا: لا .. لدفتر الخدمة العسكرية .. لا .. للحرب لأنهم لم يكونوا يملكون ليدفعوا

بالتي هي أحسن ولأنهم كانوا يملكون شرفاً وحرصاً وخوفاً على أسرهم وأقربائهم وأسمائهم أن توصم بالعار الذي يلصق بهم، لأنهم قالوا: لا للحرب .. كان المتخلفون عن الخدمة العسكرية يعاقبون بأقصى العقوبات حين يقبض عليهم لأول مرة، يودعون التوقيف يضربون بعنف بالكيبلات الكهربائية ثم يعادون إلى وحداتهم مذلين مهانين، حتى اذا تكرر هروبهم يعاقبون بقطع الآذان والأنوف من غير تخدير ثم يعدمون بالرصاص بأيدي الرفاق الذين يكون لهم شرف اختيارهم لهذه المهمة أمام أبناء المحلة، ويجبرون آباءهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم على الحضور لمشاهدة حفل الإعدام الذي يبثه التلفزيون على الهواء ويصوره ليحتفظ بنسخ منه ضمن الأرشيف الوطني للحرب، ولا تسلم جثة المعدوم إلا بعد أن يدفع أهله ثمن الرصاصات التي بها أعدم لخزينة الدولة ،حفاظاً على المال العام .

ذهب الزين إلى العمارة وراجع دائرة تجنيده كان يومها في الإعدادية. وكما فعل أخوه الأسعد من قبل، عاتباني أكثر من مرة: لماذا لم أنقل سجلهم المدني إلى بغداد ونحن نقيم هنا منذ عقد وأكثر .. شرحت لهم أنني أردت ألا تقطع جذورهم بمسقط رأسهم وحتى تتكرر زياراتهم إلى المدينة التي تلقت خطواتهم الأولى وسمعت ضحكاتهم الصغيرة ولثغهم بالكلمات. قلت لهما إن حسن الانتماء إلى القرية ،أو المدينة الصغيرة هو قاعدة الانتماء الأكبر إلى الوطن ،ثم إلى الوطن الكبير فالإنسانية،

سلسلة متصلة الحلقات .. ومن يتنكر لمدينته يتنكر لوطنه لا شك. كانا يبتسمان برضا.

مراجعة التجنيد شيء مذل للغاية، شاهدتها بنفسي. كان المراجعون وأغلبهم من الخريجين يجبرون على الوقوف في طابور طويل تحت الشمس أوالمطر، يمنعون من الجلوس، يراقبهم نائب الضابط من شباك مكتبه المكيف صيفا وشتاء فيشعر براحة عظيمة ..هو لا يحمل سوى شهادة الابتدائية، ينظر بازدراء إلى المهندسين والأطباء والمدرسين والمعلمين وحملة الشهادات العليا وهم يقفون عند باب رحمته. نوع من السادية المؤسسة على الشعور بالنقص.

حين دخل الزين على نائب الضابط صاح في وجهه، كما يصيح في وجوه الآخرين :

– قف بانتظام ،لا تضع يدك في جيبك.

ثم باللهجة ذاتها أخذ منه المعاملة .. قلبها بنزق.. وضع توقيعه عليها وصرخ:

– إلى السيد الضابط.

كان السيد الضابط أكثر أدبا وتهذيبا، معوق حرب من أهل المدينة، كان برتبة رائد، لكنه لا يستطيع التدخل، ليس عليه إلا التوقيع، فنائب الضابط هو مسؤوله الحزبي ،وهو ضابط الأمن في الدائرة، فهو المسؤول عنها لا السيد الضابط الذي قرأ الاسم.. قال لي الزين فيما بعد: ابتسم في وجهي وقال :

- أنا أعرفك صغيرا ،كنت تأتي مع والدك إلى الكازينو ،كيف هو الوالد؟

ارتحت، قال الزين،كدت أشكو إليه سوء معاملة نائب الضابط.

بعد طول عناء وانقطاع عن الدراسة حصل الزين على دفتر الخدمة العسكرية. كان عليه أن يحفظه من التلف والضياع .عمل له محفظة من الجلد ، وصار يحمله في جيبه ،يعرضه لرجال الانضباط العسكري أو مفارز الحزب حين يطلبونه منه في أي مكان حتى في المدرسة أو الكلية، وخاصة عندما يكون عليه السفر إلى أي مكان آخر. كان عليه أن يراجع دائرة تجنيده كل عام ليؤشر استمراره على الدراسة.

جاء الزين يحمل ملابس عسكرية جديدة صناعة يوغسلافية أو رومانية ،ارتداها واستعرض نفسه أمام المرآة.. بدا فرحا كما لاحظت، كان يتوق لأن يكون ضابطا في الجيش، تطلعات فتى في مقتبل العمر قبل أن يكون هناك شيء اسمه الحرب.. قبل حربنا الأولى كنا نسأل أبناءنا.. ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟

سؤال يطرحه الآباء على أبنائهم صغارا.البعض يريد أن يكون مدرسا أوطبيباأومعلما أو مهندسا،الزين، كان يريد أن يكون ضابطا،مجرد طموح فتى رأى كل شيء مغلفا بالخاكي . لم يكن في عائلتنا الكبيرة أحد من الضباط ،بل إننا لم نكن نعرف الرمي بالمسدس، وبيتنا لم يكن يمتلك،بندقية كلا شنكوف أو

مسدساً ،وأنا لم أخدم العلم، لأن الشاب كان يعفى من الخدمة العسكرية بمجرد أن يحصل على شهادة الإعدادية.

نظرت إليه بأسى في كفنه الأخضر،تخيلت خيطا من دم ينساب من الخاصرة اليمنى من الأمام.استعذت بالله من هذا الخاطر.

الحرب لا تريد أن تنتهي، سبعة أعوام عجاف، انسحبنا وراء حدودنا الدولية بعد أربعة اشهر حسب من القتال غير المجدي خارج الحدود.. حرب عبثية لا طائل تحتها ،لا ندري لماذا اندلعت، ولا ندري متى تخبو وتموت، حرائق وأنهار من دم وجبال حزن وخوف وقصف صاروخي ومدفعي طال بغداد والبصرة والعمارة والكوت والبصرة .. حرب طمرت مئات الآلاف من الشباب تحت الثرى في مواضع وخنادق، قبور مؤقتة لينقلوا بعدها إلى قبور، أو يموتون بلا قبور مخلفين وراءهم آباء وأمهات وزوجات وأبناء وبنات وأخوات وإخوة .صار لحمزة ولد.وصار الولد في المدرسة وحمزة جندي احتياط ما يزال يحارب في الجبهة من الطيب إلى نهر جاسم من شرق البصرة إلى شرق دجلة إلى شرق الحلة.

في مركز شرطة الأمل .. كان الصمت سيد الموقف يفرض نفسه بجدارة لا مثيل لها يمزقه أزيز حشرة طائرة.. لم أرها.

كان الظلام داخل الغرفة كثيفا، رغم وجود شمعة نيون تشتعل ربما لأنني جئت من الشارع حيث الشمس تعادل عشرات شمعات

النيون. نظرت في العمق رأيت منضدة يجلس عليها شـــاب لـــم أتبين منه سوى شاربيه المعقوفين إلى الأسفل في نصف دائرة.

سلمت، لم يرد الشاب المغلف بالزيتوني الغامق سلامي .كان يضع على كتفيه نجمتين على كل كتف ، وفي جيب صغير علـــى عضده الأيمن مجموعة أقلام أنيقة ،لا أدري لماذا خطـــر ببـــالي وأنا في ما أنا فيه من حزن أن هذه الأقلام ليست إلا أغطيه بـــلا أقلام لا غير رأيته ينظر إلى يتفحصني وهو يغالب نعاســـه لـــم يسألني، لكنه ضيق ما بين عينيه ،علامـــة اســـتفهام تســـتنكر دخولي عليه٠٠.

– أنتم أرسلتم علي..

نزع وجهه مباشرة ،وضعه تحت حذائه وأخـــرج مـــن درج مكتبه وجهاً آخر حزينا رومانسياً ذكرني بالأقنعة المسرحية .قال لي بعطف أبوي مع أنه بعمر ابني:

– استرح ابني ،ثم نادى على العريف رزاق ،قال له:

– قدح ماء بسرعة للعم. تذكرت الصوت،إنه الصوت نفسه الذي اتصل بي قبل أقل من ساعة على الهاتف.

– ماذا تفعل يا عمي؟ أقصد ما هو شغلك؟

تلبستني روح شيطانية رغم فداحة الموقف قلت له:

– هو تحقيق إذن..

انتفض بدمائه مبالغ فيها..

– لا لا.. استغفر الله يا عمي .. أنت ضيفنا.

جاءني العريف رزاق بقدح ماء بارد ،حدقت في وجهه كان شارباه الكثان المفرطان بالطول يكادان يبتسمان رغما عنه ،كدت أضحك، أخذت قدح الماء ،شربته دفعة واحدة،أحسست به يطفيء ظمأ عمره أعوام،كان ابني الصغير ينتظرني عند الباب .

– البقية في حياتك قال الضابط الشاب ثم أضاف بلهجة خطابية .. كلنا مشاريع دائمة للإستشهاد ..الشهداء أكرم منا جميعا. ثم رفع كفه وبدا كمن يقرأ الفاتحة .كان يتحدث بلهجة حاول أي يضفي عليها قدر ما استطاع من خشوع مهني تفرضه اللحظة المناسبة، فبدا كأنه يقرأ في كتاب، ثم مد يده فتح درج مكتبه ، أخذ مجموعة أشياء وضعها على المنضدة، لمحت من بينها ورقة خضراء.

– هذه الأشياء وجدت في جيب الشهيد رحمه الله، قرآن وثلاثة عشر دينارا و ٧٣٠ فلسا وقلادة وقرص تعريف . .

ثم وضع أمامي ورقة .. طلب مني التوقيع ثم ناولني الورقة الخضراء قائلا :

– وهذه شهادة الوفاة.

ثم نادى على العريف رزاق وقال له:

– اذهب مع العم وسلمه جثمان الشهيد.

قبل أن أخرج، التفت رأيت الضابط الشاب وراء المنضدة الحديدية ينحنى ويأخذ وجهه الأول من تحت حذائه ،يلبسه

ويضع وجهه الثاني في الدرج،حين رآني أنظر إليه بدا وكأنه لا يعرفني.

في الساحة الخلفية لمركز الشرطة كانت الصناديق الخشبية مرصوفة الواحد إلى جانب الآخر،ملفوفة بالعلم بدا لعيني أسود رغم بياضه في المنتصف ورغم نجومه الخضر كانت بيد العريف رزاق قائمة أسماء وأرقام اهتدى إلىالصندوق بسرعة وقال :

– نيتك صافية يا عمي. هدا هو صندوقكم.

رقص شارباه فرحا لأنه عثر على الصندوق بسرعة .كان الجو حاراً جداً وكان العريف رزاق يريد أن يهرب إلى داخل المركز. نظرت ثانية إلى شاربيه الطويلين لكنه وبعد أن ضبطني أراقبه ،قال: تعرف ظروفنا هذه الأيام، الجو حار ... ونحن نحاول أن نخدمكم.فوجئت بمسلكه هذا .. حدجته بنظرة غاضبة يشوبها كثير من الاحتقار، وددت لو أني أبصق بشاربه الكث ... استخذى وتراجع إلى الظل.

طلبت من ابني الصغير أن يأتيني بسيارة أجرة . انفلت بسرعة، دخلت سيارة الأجرة الساحة، تعاونا على رفع الصندوق إلى ظهرها ... شددناه بحبل .. وانطلقنا نحو البيت الذي تركته ورائي قبل ساعة وقد اجتاحه النساء والأطفال.

في بيتنا ذاك البعيد في الذاكرة في محله الإسكان التي ظلت قابعة في العمارة المنسية في الجنوب ولد الزين. كان الثالث ،ابيض بشعر أشقر نحيلا ناعما جميلا حتى أننا كنا نخاف عليه

نسمة الهواء. كان شفافا كأنه قدٌ من زجاج ... خجولا حييا مثل بنية بنت بيت كما كانت جدته أمي تقول عنه ...علق بجده أكثر مني ،صار صاحبه ورفيقه، فهما متواجدان معا في البيت ... الجد بفعل التقدم في العمر والبطالة الإجبارية والزين بسبب صغره. كان يخدمه .. يحضر له علبة الدواء وقدح الماء .. ينام جنبه في القيلولة ... يحدثه عن أيام زمانه ، صارا صديقين، من طراز خاص .. يذهبان معا إلى الجامع ومجالس الفاتحة، يملأ الدنيا صراخا إذا لم يأخذه معه، ويمتنع عن الطعام إلا إذا حضر ... فيأكلان سوية. حين مات جده وكان هو قد غدا شابا على أبواب الجامعة حزن عليه ولم يتناول طعاما لثلاثة أيام ،أردنا أن ندفنه جنبه، لكن المقبرة كانت مكتظة القبور متلاصقة، قبور الأعمام والعمات،سآخذكم إلى مكان راق،قريب من البحيرة أرض عالية لا تنزماء،قال الدفان أبو أصيبع يشير بيده،ثم استدرك..

– الدولة توزع الأراضي على المواطنين ... أنا أحصل لكم على قطعة أرض..كان يعرض بضاعته مثلما يفعل أي صاحب مكتب للعقار .

–هذه منطقة يتمناها الكثيرون .. لكنكم زبائني، ولكم الأفضلية، جدي دفن جدكم .. وأنا دفنت آباءكم وأعمامكم..

تفرس في وجوهنا ليرى وقع كلامه .... كنا ساهمين لذا لم يستطع اختراق قناع الحزن الذي كسا وجوهنا.

– أعطوني نسخة من شهادة الوفاة فقط وأنا أتكفل بالأمر.

ابتسم مشجعا ...

- قطعة الأرض هذه التي سندفن فيها الشهيد ستتحول خلال أيام إلى غرفة فارهة ... جدران وسقف وشباك. يمكنكم أن تؤثثوا الغرفة أيضا. نظرت إليه بلا استغراب ... فقد تحولت المقبرة إلى حي سكني ... غرف كثيرة وبيوت أيضا .. بيوت بغرف عدة ومطبخ ومنافع .... كلها للأحياء بالطبع يستريحون بها عندما يجيئون لزيارة المقبرة .. الغرف تحوي داخلها القبر المغلف برخام أبيض ناصع والجدران مزينه بصور الشهداء، وآية الكرسي مزججة بإطار فخم والأرضية مفروشة بالحصران والسجاد .. أحدهم وضع أرائك وثيرة وأدوات لصنع القهوة ... السكائر تتوزع على المناضد الصغيرة، وكان ثمة مباخر أيضا، والغرف تعج برائحة البخور الذي يتسرب من الشبابيك ... بعض القبور كانت بلا غرف تحتويها ... كانت ترتفع في الهواء مثل بروج مشيدة من الطابوق الناري مزخرفة بالطابوق الأحمر والأخضر في تشكيلات فنية رائعة وكانت تحمل صور الشهداء خلف الزجاج وهم بملابسهم العسكرية والمدنية وأعمارهم الفتية يبتسمون لعدسة المصور . كانت هناك أقفاص من حديد مطلية بالأخضر تحتوي القبر،تتأرجح داخلها ملابس الشهداء العسكرية وهي تخفق مع نسمات الهواء، كانت هناك كتب مدرسية وأدوات حلاقة ومقتنيات شخصية بسيطة، والشواهد المرمرية تحمل اسم الشهيد ومكان استشهاده وتأريخه وتأريخ الولادة، وكانت

الفاصلة بين التأريخين قصيرة على الغالب قد تصل إلى ستة عشر عاما ولا تزيد على ثلاثة أو أربعة وعشرين عاما .....

كانت الجنائز المكفنة بالأعلام تطير فوق أيدي الرجال والشباب في فضاء الضريح الضاج بالدعاء والعويل وعبق البخوركانوا يطوفون حول ضريح الإمام علي وهم يكبرون ويوحدون قد يكون هناك ثلاث أو أربع جنائز مرة واحدة وكانت الجنازة توضع على الأرض ليصلى عليها صلاة الميت لقاء أجر طبعاً هو ليس أجراً بالمعنى الحرفي للأجر،نوع من الإكرامية ولكنها إكرامية مفروضة لا مناص منها،ليس هناك شيء لوجه الله تعالى،الموسم جيد والمدخولات أكثر من جيدة. وصناعة الموت رائجة، كثرت قنواتها ومستلزماتها، بدأ من الذين يستقبلون الجنائز عند مداخل المدينة حتى حفاري القبور مرورا بالصناعات التكميلية باعة البخور والشموع وعلب الكبريت ومكاتب الدفن.

كان على كل صاحب جنازة أن يعرف دفانه الخاص من أبناء الأسرة والعشيرة، والدفانون ينحدرون من سلالات امتهنت الدفن قبل عشرات السنين وجدهم الرابع أو الخامس دفن جدي الثالث أو الرابع وأبوهم دفن أبي..وهو يعرف مكانه مع إخوته وأخواته.

إستقبلنا الدفان بترحاب بعد أن أتممنا الإجراءات الرسمية .. مكتب محترم، واحد من عشرات المكاتب، يتسلم موظف

وقور شهادة الوفاة وهوية الأحوال المدنية ويفتح سجلا يدون المعلومات في حقوله المتعددة.. كلها معاملات، وبعد أن ينجز كل شيء يقول .. البقية في حياتكم، مثلما يقول موظف عقود الزواج: مبروك وهو ينتظر الإكرامية.. هذا الموظف الأهلي لا يقول شيئا .. سوى البقية في حياتكم وهذا يعنى شيئا كثيرا، وأصحاب الجنازة كرماء في العادة فهم إذ فقدوا أعز ما لديهم، كيف تراهم يبخلون بشيء من وسخ الدنيا.. إنهم أمام واقعة لا تقبل الشك، فالموت حقيقة ثابتة وها هم يرون كل شيء بأعينهم .. دنيا فانية .. تمتد اليد ببضعة أوراق تدسها في يد الموظف .. يأخذها شاكراً .. داعياً بالرحمة للشهيد ثم يدسها في درج مكتبه ويغلقه .. قبل أن نغادر التفت، رأيته يفتح الدرج يعد النقود ويبتسم. حين شاهدني أنظر إليه، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله..

قادنا الدفان الذي دفن أبي إلى المكان المخصص للدفن والذي سيصبح حيازة العائلة لا يجوز لأحد غيرها أن يدفن فيها، كانت سيارته بيضاء سوبر صالون .. يقودها ابنه الذي يشبهه تماما إلا أنه لا يضع يشماغا على رأسه .. حين وصلنا كان القبر معدا.. لا وقت لإضاعة الوقت.. يجب إعداد كل شيء، التحسب لكل طارئ فقد تجئ دفعة من الجنائز قد تصل إلى الخمس أوالست مرة واحدة وعملية الإنتاج تتطلب حساب كل شيء، فهم يحضرون عدة قبور في النهار. ويتركونها لحالات الطوارئ، عمال بجلابيبهم بلون التراب مفتوحة عند الصدر تظهر منها

صديريات بلون مختلف يلفون رؤوسهم بلفات كالعمائم وهم يقلبون الحروف فيقولون يفحر بدل يحفر.. ينامون بين القبور وبينها يأكلون ويدخنون ويشربون ساهرين على خدمة المواطنين وعيونهم مطفأة خبت فيها الرغبة..

لطمت النسوة بحرقة .. ضربن صدورهن . وخمشن الخدود.. رقصن رقصة الموت بهستيرية مثل طيور تذبح.. لا يعرفن ما يعملن.. سقطت أكثر من واحدة إعياء.. رشوا عليها الماء فتحول إلى طين. تدخل الرجال وطلبوا منهن الكف عن اللطم ثم جاء أكثر من رجل راحوا يقرأون القرآن سوراً مختلفة، شيء من سورة ياسين وألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر. اختلطت أصواتهم المبحوحة والمتحشرجة ببعضها.

أخذني الدفان بعد أن أتموا عملية الدفن وراح يسألني عن طلباتي.. لم أفهم ما يريد. ابتسم بأسى وقال:

- أقصد، هل تريدون قفصا؟ غرفة؟

- أنا لم أجب .. هو أجاب.

- الغرفة أفضل، أكثر سترا للعائلة.. تأتون في البرد والمطر تجدون سقفا يحميكم القفص لا يحمي غير القبر.

_ كما تشاء..

قال لي وهو يتحدث تماما، مثل مقاول يتعهد ببناء بيت.

- الغرفة تكلف أربعة آلاف دينار، تأتون في الأربعين تجدونها جاهزة تستلمون المفتاح. ثم أضاف..

-غدا أذهب إلى المحافظة لأحصل على حيازة الأرض بعدها أحضر مواد البناء.. الطابوق والإسمنت الباب والشباك وسنبدأ العمل بعد يومين أو ثلاثة.. حين تأتون في زيارة الأربعين تجدون كل شيء جاهزا غرفة ممتازة.

انطلقت السيارة في طريق العودة، سالكة طرق المقبرة الملتوية وهي تثير غبارا كالكلس أبيض ناعما.. خفتت الأصوات في السيارة، استبد بالجميع تعب حد الإرهاق، بقي صوت الأم وحده وصوت الأميرة.. تحول إلى نشيج أخرس.. كان السكون يسيطر على كل شيء وكانت السيارات تنطلق نحو القبور المعدة سلفا.. سيارات أجرة وسيارات كوستر وباصات، عوائل متشحة بالسواد، ونسوة نسين كل شيء إلا اللطم، أمهات مفجوعات وأخوات وبنات وزوجات. في المدينة كان لا بد من التوقف عند أحد المطاعم .. فالموت يفتح شهية غير المفجوعين.. هناك عدد من الرجال والشباب والنسوة المشاركين في رحلة الدفن، والمجهود الذي بذل استنزف كثيرا من طاقة الكثيرين ورائحة الكباب والطماطة وطرشي النجف تستحلب الريق.ومطاعم الكباب راحت تتسابق في تقديم خدماتها، والسيارات تقف، ينزل منها الركاب المتربون متثاقلي الخطى، يأخذون أماكنهم بانتظار الطعام.. حين يحضر ترفرف ابتسامات حيية على أكثر الشفاه.. الأم وحدها لا تأكل. الأب يمتنع، لكنه يتنازل عن قراره تحت تأثير الآخرين ويأكل، ثم يحاول إقناع الأم التي تكتفي بقدح

ماء.. تغسل وجهها ثم تشرق بريقها.. عيناها متورمتان ووجهها قطعة دم والشمس تسقط عمودا من لهب.. تنطلق السيارة هاربة على الطريق الإسفلتي .. الكرى يداعب العيون التي أجهدها السفر والحزن والبكاء.. الزين يجلس.. راح الكرى يداعب عينيه .. ألقى رأسه على كتفي أفسحت له في المجال فغفا، نظرت إليه، وقد أسبل رموشه الجميلة .. قلت له :

- أتعبك السفر الطويل..

- لا . . قال لي لكنه البكاء الذي يشعب القلب، لماذا تبكون بهذا الشكل قلبي ينفطر على أمي. يا لقلب الأم .. اطلب منها يا أبي أن تكف .

- لكنه قلب الأم

- أعرف ذلك، أنا لم أغادركم ، أنا ما أزال بينكم أسمعكم وأراكم ، مالكم لا تجيبوننى ،صوتي واضح كما أرى.

صحوت فزعا .. التفت، كان ابن أختي يريح رأسه على كتفي .. السيارة تخترق صفا من البساتين على جانبي الطريق.. كان الجميع نائمين.. جاءني صوت السائق خلال هدير المحرك وعصف الريح..

- غدا علي الالتحاق، أنت تتدبر أمر السيارة والعائلة .

- إن شاء الله، قال المساعد ابن أخته.

ربما أعود على قدمي أو محمولا على ظهري وتكون معي في رحلة كهذه في سيارتي هذه تقودها بنفسك..

كان صوته يختلج.

- لا سمح الله، قال المساعد ثم أردف :

- لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..

عدنا إلى البيت نحمل تعبنا وحزننا .. عدنا من دون الزين الذي أخذناه في صندوق أودعناه بـواد غيـر زرع واسـتقبلتنا سورة يوسف . يا أسفى على يوسف، كان الزقاق قد تحول إلى شيء آخر، نصبت خيمتان من قماش خاص، فكانتا مثل سرادق طويل غطى واجهات ثمانية من بيوت الجيران المتقابلة. فـرش السرداق بالزوالي والبسط ووضعت الأرائك في صفين متقـابلين وسورة يوسف تتردد في الفضاء من ثـلاث مكبـرات للصـوت ضخمة نصبت على أسطح البيت وبيوت الجيران واشتعلت النار وراحت دلال القهوة الكبيرة تغلي،إستقبلنا المعزون الذين جاءوا من أماكن بعيدة بالبكاء والعويل، احتضنونا واحدا واحدا وهـم يحاولون أن يعبرواعن أكبر قدر من العواطف ،كان بينهم أقارب لم نرهم منذ سنين بسبب خلافات عائلية بسيطة لكـنهم مـا أن سمعوا النبأ المفجع حتى وضعوا خلافاتهم معنا وزعلهم علينـا جانباً وجاءوا يهرعون ،وهذا مبدأ عام في كل الأسر والعوائـل، تناسي الخلافات إزاء الموت، قد لا يحضر المختلفـون حفـلات العرس أو غيرها من المناسبات السعيدة، إلا أن مناسبة المـوت شيء آخر ..

صناعة الموت راجت وتطورت في كثير من جوانبها لتواكب حالة الانتعاش وتلبي المتطلبات الجديدة، استعيض عن بيوت الشعر بالخيم المقوسة وهي من الكتان دون الحاجة إلى دق الأوتاد وما يتطلبه من عمليات إزالة طبقة القير في الشوارع المبلطة حديثا ، صارت الخيمة تنصب على أقواس حديدية تتماسك مع بضعها بواسطة قضبان طويلة وهذا يدل على أن هناك خبراء يعملون في مجال الصناعات التكميلية للموت يفكرون ويبدعون من أجل تقديم أفضل خدماتهم للمواطنين في إطار المنافسة المشروعة مع غيرهم. لم تعد هناك حبال تعترض الطريق ولا أوتاد ولا حاجة إلى مطارق حديدية ثقيلة لدقها . كما جهزت الخيم بالخدمات الكهربائية، نشرات من مصابيح وهاجة تحيل الليل نهارا.. ومكبرات صوت ضخمة وأجهزة صوت وتسجيل ومراوح ومبردات هواء ومغاسل مربوطة بمصدر المياه من جانب وبالمجاري من جانب آخر ، صناعة متكاملة ومشاريع إستثمارية يقف وراءها متخصصون في علم سلوك المستهلك وإدارة الأعمال. وربما هي الخبرة وحدها..

هناك قراءة القرآن والختمة .. قراء أغلبهم من العميان لهم مكاتب خاصة يصار إليهم عند الحاجة ،يجيئون بهم بعمائمهم البيضاء ونظاراتهم السوداء تبرز أنوفهم بشكل واضح يتحسسون روائح الطعام الذي يكون دسما في هذه المناسبات وتفتر شفاههم رغما عنهم عن ابتسامات يحاولون إخفاءها

لجلال الموقف .. والطباخون جزء مهم من الفاتحة وهم متخصصون في تقديم الوجبات الثقيلة خاصة في عشاء اليوم الثالث حيث تختتم مراسيم الفاتحة بعد أن تبلغ فيه هذه المراسيم ذروتها. تذبح الخراف ويطهى الرز بالكشمش واللوز فوقه اللحم في صوان كبيرة وتلمع صواني البقلاوة تحت الأضواء الوهاجة وتنتشر السيارات الفارهة في الزقاق وفي الساحة القريبة .. فالفاتحة تقام للأحياء من أجل التفاخر والوجاهة، هناك واحد ماتت أمه، فكان يذبح ثلاثين خروفا كل وجبة مع الفواكه كالموز والبرتقال وعلب المرطبات،ليس ثمة فرق بين عشاء الفاتحة وعشاء العرس ،أهل الميت يفاخرون بعدد السيارات التي تقف عندهم وبالمسؤولين وكبار الشخصيات الذين يحضرون الفاتحة.. كان الناس من ذوي الشهداء يجدون راحة في هذا.. وكانت الدولة تساعدهم وأصحبت شهادة الوفاة الخضراء بطاقة رابحة، يمكن عن طريقها شراء ما يلزم من الأسواق المركزية .. الرز والسمن والسكر والشاي والقهوة والسكائر ..

وقفت أستقبل المعزين كما يجب .. كففت عن البكاء العلني.. رحت أبكي بصمت،وتحول بيتي إلى حمى مستباح، يمرح فيه الأولاد الصغار المتعلقون بأذيال أمهاتهم كما يشاءون يتفقدون ويعاينون ويعبثون بكل شيء. أولاد الجيران القريبين وأولاد الأقارب وامتدت أكثر من يد إلى مكتبتي طالتها وعبثت بها،ويد خفية سرقت في اليوم الأول بضع قطع من الحلي الذهبية شغلت

الفاجعةالجميع عنها،ظهرت بعد سنوات في عنق فتاة من الأبعدين.

في مجلس الفاتحة.. جاء رجل رث الثياب، يبدو عليه الانكسار سلم، وجلس قرأ الفاتحة. قلنا له الله بالخير قدموا له الماء والقهوة .. شرب.. رأيته يحدق بي وأنا لا أعرفه. كان يجلس قبالتي تماما يريد أن يقول شيئا.. قسمات وجهه كانت تقول ذلك.. أفكاره طفحت على ملامحه وهو يهيئ ما يريد قوله.. لكنني كنت مشغولاً بنفسي، تجاهلته لكنني سمعته يقول:

– ياعمي . والله أنا أحسدك.

نظرت إليه بإستغراب كدت أخرج من طوري. تصورت إنه ينافقني كأنه يريد أن يقول إني حزت شرفا لايدانيه شرف إذ فقدت ابني فأصبحت من ذوي الشهداء.. هكذا تصورت، إلا أنني راجعت نفسي.. نظرت إليه بعجب وقلت:

– تحسدني .. لماذا؟

– نعم .. أحسدك .. لقد جاءوك بابنك عاينته بنفسك وبكيت عليه.. ودفنته بيديك وأقمت مجلس الفاتحة.

– وماذا في ذلك حتى تحسدني عليه؟ فقدت ابني وتأتي لتقول لي إنك تحسدني.

– لأن أحدا لم يأتني بابني .. لقد تبدد من بين يدي مثل شيء من ماء، قالوا لي إنه مفقود.. وسنعلمك في حينه عند العثور عليه.. أين سيعثرون عليه؟ هل هو طفل صغير ضاع في

الزحام؟ بكيت قبل أن يبكي تذكرت أن المصائب هي المصائب لكنها قد تتدرج. في مستشفى الرشيد العسكري، رقد ابن أخي،قصف موضعهم في الشمال أيضا جاءوا به مقطعا،بتروا ساقه تشوهت ذراعه، قلعت عينه. شاب في الثالثة والعشرين تحول إلى حطام.. كنا نتمشى في حدائق المستشفى،المصابون درجات يحسد بعضهم بعضا وهم جميعا يحسدون السائمين المعافين،مبتور الساقين يحسد مبتورالساق الواحدة لأن الأخير يستطيع الوقوف على ساق واحدة وسيزود بطرف صناعي يحل بعض مشكلته، مبتور اليدين يحسد مبتور الساقين لأن الأخير ينعم بحك جلده وحلق لحيته بنفسه.

بقي مجلس الفاتحة منصوبا لثلاثة أيام .. ليل نهار.. مهرجان فخم.. يأتي المعزون وقد حلقوا ذقونهم و تطيبوا .. لبسوا أفخر ما لديهم.. بدلات أنيقة رغم الحر.. دشاديش خارقة البياض وغترات فاخرة وعقل أنيقة وهناك من جاء بالبزة الزيتوني وقد وضعوا في جيوب صغيرة أعلى العضد الأيمن عددا من أقلام الحبر الفاخرة وعلى جنوبهم مسدسات بمقابض من الفولاذ داخل محافظ جلدية أنيقة وثمينة يترجلون من سيارات فخمة ضاق بها الزقاق وامتلأت الساحة البعيدة. كانوا يحملون معهم أكياس الرز والسكر وصفائح السمن حتى امتلأ بها بيتي وجاء البعض بالخراف الحية.. فيما كان البعض يقدم النقود. وكان على إدارة الفاتحة أن تمسك سجلا خاصا بهذه المناسبة

يسجل فيه اسم الشخص وما قدمه فالفاتحة كما كان يقول والدي هي دين وسداد دين يعني إما أن تسلف صاحب الفاتحة أو ترد سلفا تفضل به عليك.

جاء المعزون من أماكن بعيدة وكان علينا أن نعد لهم المأوى للمبيت. امتلأ الجادر بهم ليلا مثلما امتلأ سطح الدار.. كان البيت مأوى للنساء اللاتي تجمعهن الكارثة فيصبحن كارثة جديدة. كل واحدة تحمل ضغينة للأخرى من نوع ما.. ولكل واحدة ثأر عند الأخرى.. الأخوات وبنات الأعمام وأخوات الزوجات وزوجات الأخوان.. الموقف يتفجر بين آونة وأخرى بسبب أو بلا سبب.. كلمة غير مقصودة أو تصرف عفوي. البعض يغادرن البيت وهن يحملن أولادهن فوق الأكتاف، يقسمن ألا يطأن عتبة الدار.. الرجال يتدخلون أحيانا لإصلاح ما فسد وقد نسي الجميع فداحة الخطب فالأمر ليس إلا تنفيذ واجب وتبرئة ذمة والعوائل لا تجتمع في غير هذا الوقت. فلا أحد يحضر عندما يتزوج أحد الأبناء أو الإخوان. أما عندما يموت أحد فالجميع يحضرون لأنهم يتذكرون انهم يموتون أو يموت أحد منهم في يوم ما، ومن الخير أن تتواصل الأمور بلا انقطاع في هذا المجال، وعلى الجميع أن يحضروا وأن يؤدوا الواجب.

في العشاء الأخير عشاء اليوم الثالث تبلغ الفاتحة ذروتها لتخمد بعد ساعات.. عند الصباح الباكر تذهب لجنة المشتريات في الفاتحة وهي من الأقارب من الدرجة الأولى إلى السوق

تشتري ما يحتاجه هذا العشاء.. ثلاثة أو أربعة خراف .. واللوز والكشمش والفواكه والخضراوات يستلم الطباخ ما يخصه ينصب قدوره الضخمة فوق مواقد الغاز الخاصة يحضر معه البهارات والتوابل يعد البرياني باللحم..

بعد الأذان تنصب الموائد الطويلة داخل وخارج السرادق، ترتب السفرة بشكل لائق يتقدم المدعوون للأكل على وجبات الصائمون أولا، الماء والتمر ثم شوربة العدس.. تتلألأ الأضوية .. تمتد السهرة إلى وقت متأخر، البعض نام طويلا في النهار وأمامه متسع من الوقت للحديث والسمر مع الأصدقاء الذين التقاهم مصادفة ربما بعد فراق..

تناسينا أحزاننا لبعض الوقت.. فنحن أمام واجب ألقي على كواهلنا وليس علينا سوى أن نقوم به على أفضل وجه، فألسنة الناس لا ترحم.. وعلى المرء في موقف كهذا أن يظهر الاحترام والتقدير للجميع بغض النظر عن منزلتهم أو درجة قرابته منهم، هناك من جاءوامن أماكن بعيدة معزين، وقد تجشموا عناء السفر، وعلينا أن نتسامى فوق أحزاننا وأن نرتفع فوق كل الخصومات أو الخلافات، فنحن المضيفون بكل الأحوال. كنت أتمنى أن أكون أنا المحتفى به وأن يقف الزين وإخوته والأميرة وأخواتها يتلقون التعازي، لكنها الحرب التي يدفن فيها الآباء الأبناء..

بعد أن انتهت الفاتحة قوض الشبان المتطوعون من الأقارب والجيران والمعارف والأصدقاء السرادق، جمعوا الصحون والأواني ومعدات الكهرباء والصوت ليأتي المقاول صباحا لأخذها بعد أن يتسلم حسابه.

انفض الجميع وأطفئت الأنوار، صعد من صعد إلى سطح الدار، طلبت منهم أن يعدوا لي فراشا في غرفة الإستقبال.. تركت الباب مفتوحا، فقد كان الجو حارا، مددت جسدي المحطم وأنا اشعر بكل خلية فيه تصرخ وتنبض بالتعب. سمعت الباب الخارجي يفتح بهدوء، ثم سمعت وقع خطوات ثقيلة .. صوت حذاء عسكري يتقدم على الأرض المبلطة بالمرمر ثم صوت احتكاك ملابس خشنة بشجرة ورد عند الباب. شاهدت جسده الفارع يملأ فضاء الباب.. تابعته يدخل من الباب الآخر نحو المطبخ كان الجدار بيننا شفافا تابعته يذهب إلى الثلاجة، يفتح بابها ليتسرب ضوؤها إلى الغرفة.. أخرج طاسة اللبن الكبيرة ،رفعها إلى فمه وراح يشرب، كنت أراقب تفاحة آدم تصعد وتنزل وهو يكرع اللبن بشهية كبيرة .. كان اللبن بارداً وقد طفت على وجهه حبات من الزبد الأصفر.. رأيته يمسح شاربه الأشقر بظاهر يده وهو يقول الحمد لله .. الشكر لله.. وضع الطاسة في مكانها وأنا أراقبه يغلق باب الثلاجة ويتمدد على الأريكة في غرفة الإستقبال حيث أنام، لكنه انتفض فجأة وكأنه انتبه إلى وجودى أو كأنه تذكر شيئا ،جاءني حيث أنام وقال لي:

-هل أنت نائم يا أبي؟

جلست نظرت إليه سألته:

- متى وصلت؟

- قبل ربع ساعة، جئت بإجازة قصيرة ،إستشهد أحد أصدقائي في كردمند ،جئت لأعزي أهله.

- سأذهب معك، أين بيتهم؟

- لن تستطيع ذلك يا أبي، سأذهب لوحدي ،انا حتى لا أعرفهم.. يسمونه الزين هكذا، شاب أشقر شعره كحقل الحنطة. استشهد في اليوم الأول لوصولنا.

- في كردمند، أصابته شظية؟

- وما أدراك؟

- عند الخاصرة..

- رأيته؟

- بقي دمه يفور لثلاثة أيام..

- من أدراك ؟

- أريد أن أراه، دعني أذهب معك ،أريد أن أرى أباه ربما كان صديقا.

- بالطبع، أنت تعرفه جيدا، اسمه سعيد مسعود.

- نحن صنوان ، أعرفه مذ كان صبيا يافعا حافي القدمين يضع كتبه في كيس عملته له أمه من كيس الطحين.. كان أصفر

الوجه، نحيل الجسم حتى أنك تستطيع أن تعد أضلاعه واحدا واحدا.. لقد حدثتك عنه طويلاً، أشعر أننا لم نفترق ..

- وابنه الزين تعرفه ايضاً؟

- الزين ذو الشعر الأشقر كحقل الحنطة، أنت تعرفه أيضا.

- مسكين..

- لماذا؟

خر صريعا أمامي بعد ساعات حسب من وصولنا إلى قمة كردمند، كنت معه في مدرسة المدفعية، كنا قبلها في كلية الإدارة والاقتصاد وقبلها كنا في إعدادية الرسالة في بغداد.. وفي العمارة هل تذكر أبناء عبد الحميد الكحلاوي؟

- أذكرهم، كانوا يأتون معك وأنتم منصرفون من مدرسة موسى بن نصير تمرون بالبيت، تدلف إلى الغرفة، ترفع خوصة حلاتة التمر تقتلع ما تستطيع وتأكلون معا أنت تحب التمر..

- والزين..

- يحبه كذلك ولكن قل لي كيف وقع الحادث.

- طلب منه الآمر الذهاب إلى رحبة العجلات المحتمية وراء صخرة عالية .. في طريق عودته سقط صاروخ معاد قريبا منه تشظى الصاروخ فأصابته شظية..

- في الخاصرة عند الثانية والنصف بعد ظهر السبت.

- وما أدراك؟

- شعرت أمك بانقباض .. هي قالت لي ذلك فـــي حينـــه، أحست قلبها يتشظى دعني أذهب معك؟

- لا تستطيع..

- هل عانى كثيراً، تعذب؟

- كانت إصابته في المقتل ،هرعنا إليه بعد قليل ،كان قـــد غادر.. علي أن أرحل قبل الفجر.

- دعني أوصلك حتى نهاية الشارع.

- لا

- دعني أقبلك.لا تستطيع يا أبي.

سمعت خطوات لينة تقترب

- مع من كنت تتحدث ؟

- ربما كنت أحلم.. أنت تعرفين أنني أتكلم في نومي. لماذا لم تنامي حتى الساعة.. هل صعد الزين؟

نظرت إلي باشفاق وبكت.

تناهى إلي صوت السحور من بعيد، تابعته حتى قدرت أنه وصل إلى الشارع حيث زغردت أمه قبل بضع ليـــال . تـــذكرت ذلك، تذكرت ليالي علي الغربي في رمضان وصوت الطبل يتردد عند السحور يوقظ الناس.

يا أمنا .. لن نعودا.

*****

الظلام هو كل شيء. والشوارع مقفرة تجوس خلالها الريح وصفارات الإنذار تعوي مثل ذئاب مسعورة.. تملأ القلوب رعبا.. أول مرة نسمعها بهذا الشكل الدامي، إنها تعول تبكينا ربما، نسمعها حيانا في غارات وهمية، سمعناها لأول مرة عند نهاية الستينات.عرفنا حينها شيئا اسمه الغارات الوهمية والدفاع المدني كنا نضحك، فأية حرب يمكن أن تنشب حتى نعد لها كل ذلك..

الطائرات المعادية تتقاطع عبر السماء السوداء المولولة بالريح وصفارات الإنذار. بدأت الحرب منذ ثلاثة أيام.. ذات فجر ندي.. مفعم برائحة الشبوي والورد الجوري، على حين غرة. تهشم الصمت مثل زجاج تناثر وبكى الفجر.. كان للصمت صوت وهو يتهشم، وكان للفجر دموع وهو يبكي .. لم يستطع أحد أن يجمع أشلاء الصمت المبعثرة أو أن يكفكف دموع الفجر.. طائرات معادية نراها عن قرب تطعن قلب السماء ليل نهار، تلقى بقنابلها وصواريخها أنى شاءت وتتلقى إجابات من مضادات أرضية.

إنها الحرب، قال الجميع. الأميرة في سنتها الأولى في الجامعة على مبعدة مئات الكيلومترات .. سافرت قبل بدء الحرب بأيام من حربنا الأولى .. أوصلتها إلى كراج العلاوي.. لم أغادر الكراج إلا بعد أن غادرت السيارة. رحت أراقبها حتى اختفت في الشارع المزدحم بين عشرات السيارات.

أمها نظرت إلي بفزع

- لو ندري ، ما تركناها تسافر ..

نظرت إليها .. حاولت أن أدارى قلقا واضحا..

- ليس هناك ما يوجب القلق،القصف يستهدف بغداد وحسب..

كنا نتحاور ونحن مقرفصون جميعا في الظلمة تحت السلم.

- اجلسوا في الزوايا .. زوايا البيت .. أقل عرضة للتدمير.. تحت السلم أفضل مكان نصحني بعض الأصدقاء.

ابتسمت .. نظرت إليه..

- أي قصف هذا الذي تتحدث عنه ما هي إلا مناوشات محدودة.

- سنرى ، افعل ما قلت لك ،لن تخسر شيئا.

اليوم الثالث للحرب، صفارات الإنذار والريح الغاضبة وهدير الطائرات وأصوات المضادات الأرضية والصواريخ أراقبها من النافذة العليا،المح الوميض أولاً .. أقول لهم استعدوا.. بعد ثوان يدوي انفجار.. قد يكون هائلاً ،صاروخ طائرة أو قنبلة.. سمعنا فجأة طرقا خائفا على الباب . نظرنا إلى بعضنا.

- من ؟

أنا الذي خرجت إلى الباب، كدت أصعق حاولت لملمة اطراف شجاعتي المبعثرة، استعرت وجها مرحا لا أدري من أين.

ابتسمت جاءت الأميرة هكذا وبشكل غير متوقع .. بدت شاحبة هزيلة مثل خرقة مبتلة، عينان وامضتان وشعر منفوش عبثت به أصابع الريح والخوف.. تحمل حقيبتها.. دخلت البيت.. ساعدتها في حمل الحقيبة، صعق الجميع .. اختلطت أصوات البكاء بالفرح، حاول الجميع السيطرة على انفعالاتهم إلا الأم.. انخرطت ببكاء صامت.. وقبل أن تفعل الأميرة أي شيء ألقت بنفسها بين ذراعي أمها. وانخرطت ببكاء مماثل ..

– ماذا؟ قلت لها.. الحمد لله على سلامتك..

– لكنها لم تجب ظلت تبكي بحرقة ، تنشج مثل طفل وقع عليه العقاب.. ثم رفعت إلي عينين تفيضان من الدمع حمراوين متضخمتين.

– شيء مدمر.لا يمكن أن أصدق أنتم أحياء، غير معقول .. ما كنت أظن أني سأراكم .. أنا.. هل أنا.. أنا.. هل أنا حية.. لا أصدق .. ثم راحت تبكي وتضحك، راحت تقبل إخوتها وأخواتها جئناها ببعض الماء، غسلت وجهها وشربت. ردّ الدم إلى وجهها، أسندت ظهرها للحائط ومددت ساقيها.

– كم بعيد هو الطريق من القناة إلى البيت،لم أكن أتوقع أنني سأصل .

– ماذا؟ جئت ماشية.

– جئت ماشية.. نعم، رفض السائق أن يوصلنى هذه المسافة القصيرة.. ثلاثة أيام بلا ماء.. ولا كهرباء .. في القسم

الداخلي. يقولون إن الحرب ستستمر ربما أسبوعا.. أو شهرا، من يدري؟

– لا .. قلت لها.. ربما تستمر أسبوعا على الأكثر أما مسألة الشهر فشيء لا يصدق.. تركيا تتوسط لوقف إطلاق النار.

قال الأسعد ضاحكا..

– أنا أفكر بحمزة المسكين.

– أي حمزة؟

– هل نسيته يا أبي .. بطاقة الدعوة لعشاء عرسه على المنضدة، أعد كل شيء للزواج وزع البطاقات. ذبح الذبائح وأعد كل شيء، في الصباح انتهى كل شيء.

– عرفته، حمزة النجار، الذي عمل لنا سقف البيت.. القالب .. مسألة بسيطة يتأخر زواجه أسبوعا أو أسبوعين أو شهراً.

– هم يقولون ذلك .. احتفظوا ببطاقات الدعوة.

– لقد نسيناك يا ابنتي سأحضر لكم العشاء .أنت بلا غداء.

– ولا فطور، قالت الأميرة.. الماء فقط طوال الطريق ونحن نتوقع قصف السيارة .. كانت الطائرات تمرق من فوقنا رائحة غادية لا ندري أهي طائراتنا أم طائرات معادية،سائق التاكسي رجل بلا قلب

– كان عليك أن تمنحيه مبلغا إضافيا..

– رفض ،عرضت عليه فرفض ..

- الحرب تغير أخلاق الناس..
- أية حرب هذه، ثلاثة أيام وتغيرت أخلاق الناس.
- كان عليه أن يعتبرها مثل ابنته.
- رجل أكبر، منك سنا يا أبي.
- انسي الموضوع ..الحمد لله على سلامتك.

كان الجو حارا، الكهرباء مقطوعة ونحن ننام في الغرف أنا، وحدي تجرأت وصعدت إلى السطح..

- القصف.. ألا تخاف..
- هل يمنع السقف مثل هذا القصف.
- هما سقفان قالت زوجتي.
- لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

انتهى أسبوع ثم آخر. بدا أن الحرب ستستمر ربما شهراً كما قالت الأميرة، لكن الحياة بدأت تعود إلي طبيعتها شيئا فشيئا بعد أن توقف القصف الجوي على بغداد والمحافظات،كان الجانب الآخر ربما غير مستعد لمعركة جوية غير متكافئة عادت الأميرة إلى الجامعة،وعادت الكهرباء واستمر التلفزيون ينقل برامجه إلى ساعة متأخرة يكاد يتفجر بالنداءات والهوسات والأغاني والأناشيد التي تحث على الحرب هيه يا سعد يا جدنا ،احنا مشينا مشينا للحرب،تزوج حمزة وزع بطاقات جديدة بعد أن طال أمد البطاقات القديمة. جاءني ببطاقة..

- هذه الحرب لن تنتهي.. من الأفضل أن أتزوج.

– هذا أفضل..ربما تستمر شهرين أو ثلاثة .. من يدري .

أطلقت عليها حرب الأسابيع السبعة ثم حرب المائة يوم ثم حرب الأشهر الأربعة ولم تنته، انتهى العام الدراسي ولم تنته الحرب، لكننا لم نعد نشعر بها تحولت إلى بيانات صادرة عن القيادة العامة للقوات المسلحة تذكر خسائرنا ثم استبدلت بكلمة تضحياتنا.. بدأت التوابيت الملفوفة بالعلم تشاهد في الشوارع على فترات متباعدة.. كان المطر خفيفا.. إنه أول الغيث...

واو ...ألف

ولد في فمه رائحة حليب الأم
وطعم الفرح المترع بالشوق...
وافاه الوجد ليلة عرسه
فنضاعنه رداء الخوف
ومضى يتسابق والليل
ودعه الحزن...
الخوف
ودعه رغد الدنيا
فصار بحضن الليل
نجما...
وردة شوق أحمر
يا أسفى على يوسف
واحر قلباه
والحرب لا تملك قلبا كالأم
لا تملك دمعا
لا تعرف أسرار القلب
لا تعلم ما نعلم
تذيق القلب مرارات الجمر
يا للحرب .. يا للحرب..

واصلت سيري بطيئا.. منكس الرأس حزينا.. يثقل كاهلي هم الغربة. ثلاث سنين أنا هنا، أتنقل بين عمـــان وبغـــداد.. ســـتة شهور هنا وشهر هناك..

الوجوه الصديقة التي عرفتها في بغداد تحولت عني، تقاطعت الطرق فكنت وحيدا، أمشي وحيدا.. أنام وحيدا ،في غرفة علـــى السطوح في صويلح، شهدت مولد الثلج لأول مرة.. راقبته بعـــد الظهر ينهمر ندفا مثل عهن منفوش.. وحين هبط الليل واصـــل انهماره بغزارة وأنا أسمعه طوال الليل.. اســـتوطن كـــل شـــيء أسلاك الكهرباء ولافتات الإعلان والسيارات التي تدثرت بالأبيض وروحي. اتصلت صباحا بالبيت حكيت لهم عن الثلج الـــذي أراه لأول مرة. وما أزال أسير وحيدا وسط طريق اختططته بنفسي لا أتحول عنه. لي آرائي الخاصة وأفكاري التي أؤمن بها.. أنا ضد ومع .. ولن أكون مع أو ضد.. هناك في بغداد ما تزال عـــائلتى .. وزوجتي وأولادي وبناتي .. هناك إخـــوتي وأخـــواتي وأولاد عمي.. لن أسبب الأذى لأحد، ولي شهيدان ضمهما ثرى العراق.

انتهت الفاتحة جلسنا صامتين وما تـــزال رؤوســـنا ضـــاجة بالأصوات والبكاء والنحيب وقلوبنا تنزف دما.. نقصنا واحـــدا.. اخترم الموت واسطة العقد.. يتراءى لي شبحه ضـــاحكا هازئـــا يتوعد.. الأميرة والأسعد والصغار صامتون .. قالت زوجتي:

– اهتم بنفسك من أجلنا..

– وماذا ترينني فاعلا؟ هل سأقتل نفسي غما وكمداً،أنا كما أنا،آكل وأشرب وأضحك،وهو ينام تحت وطأة التراب ،ليتني كنت مكانه لأستريح ولكن هي إرادة الله سبحانه، وماذا تتوقعين أننا نحيا بعدهم، كلنا في الأثر،ما أن يولد الانسان ويحصل على شهادة الميلاد حتى تكون شهادة الوفاة بانتظاره ليس إلا أن يملأواحقولها بالاسم والعمر والجنس، سنة الله في خلقه ،غدا سأخرج إلى الشارع والعمل أزور الأصدقاء، أكتب وأقرأ وأنشر وأتشاجر وأتصالح وأضحك سأحلق لحيتي وأتعطر هكذا نحن الرجال الدولةلن تناسانا ستمنحنا قطعةأرض وبدل سيارة وقرضا من المصرف العقاري ،هل سنتعارك أنا وأنت من أجل النقود؟

نظرت إلي عاتبة وبكت .

– لماذا لا؟ ألم يتقاتل أكثر من واحد مع زوجته أو زوجة ابنه من أجل السيارة؟ ألم يقتل أحدهم ابنه لأنه لم يذهب إلى الجبهة ليستشهد ويستفيد منه؟ ألم تعير إحداهن زوجها الضابط برتبة عقيد لأنه لابد في الحبانية ولا يذهب إلى الجبهة.

– نعم، حدث كل هذا، أعوذ بالله.

ذات جوف ليل في أثناء الفاتحة تناهى إلينا صوت اثنين يتحدثان .. كانتا ينامان على الأرائك في الزقاق عرفتهما من نبرة الصوت. كانا من الأقارب الأقربين..

قال أحدهما وهو الأقرب:

– خمسة ما فائدتهم .. كلهم جنود يروحون ويجيئون، علي أن أدفع لهم أجور السفر ومصرف الجيب، لو استشهد واحد منهم من أجلنا جميعا لصرنا بأحسن حال..

رأيت في نبرة صوته صدقاً، وحماسا، ولكنه ضحك.

قلت في نفسي:

– ردَّ علي الزين ولك مني ما تريد.

نظرت إليَّ زوجتي، عرفت صاحب الصوت أيضا.. طأطأت رأسها وانخرطت في بكاء صامت، شعرت بكياني يرتجف، وكان البيت يتزلزل.. في الصباح نظرت في وجه قريبي ذاك بدا لي غير الوجه الذي أعرفه.. كان وجهاً من حجر ملطخاً بالدم.

في الاربعين استأجرنا باصا كبيرا، وأعددنا طعاما وذهبنا لزيارة المقبرة. كانت الغرفة اكتلمت كما وعد الدفان ،غرفة فسيحة مصبوغة جدرانها من الداخل بالأخضر، وأمامها سياج حديدي يرتفع أكثر من متر. يضيف لها مساحة لا بأس بها . يمكن أن تستوعب ساكنين جددا ، إذا ضاقت الغرفة بساكنيها، فعلى الإنسان أن يحسب لكل شيء حسابه وأن ينظر إلى المستقبل وأن يأخذ بنظر الاعتبار الزيادة السكانية في المقبرة وفق معدلاتها المتساوقة مع إنتاجية الحرب التي ما زالت تدور منذ ست سنوات وأكثر، ولا بد أن يشمل هذا التوسع مقبرتنا الصغيرة، فربما تستضيف أحبة لنا من عائلتنا أرجو أن أكون أولهم.. حسبت الفسحة المسيجة أمام الغرفة فاكتشفت أنها تتسع

لعشرين قبرا.. ضربت الطول بالعرض، ثم حسبت ما يشغله كل قبر من مساحة. قسمت مساحة الفسحة السطحية على مساحة القبر كانت النتيجة عشرين أي عشرين قبراً وزيادة..

سألني واحد ممن أعرف:

– هل ستدفنون أحداً مع الشهيد؟

نظرت إليه باستغراب.

لم أجب حاول أن يداري خجله..

– أنا عملت لابني قفصا. القفص أحسن وأقل كلفة.

ثم قال مباهياً:

– حصلت على قطعة أرض في الحسينية على الشارع الرئيس سيكون شارعاً تجارياً في المستقبل أنا أتوقع ذلك..

جاء البعض بسياراتهم الخاصة، البعض من أماكن بعيدة. من محافظات الجنوب من العمارة والبصرة وكان التجمع في المقبرة، الكل يعرف المكان فقد حضر قسم منهم مراسم الدفن. وكان الموعد الجمعة وذلك أجزل ثوابا كما يقول العارفون.

الليل يملأ الشوارع والأزقة. والنهار يحلق فوق الرؤوس ويحجب ضوء الشمس الجميع بالأسود.. مكفنون بالحنـدس ، رجالاً ونساء وأطفالاً عباءات سود وأغطية رأس وجوارب ونعال بلاستيكية سوداء، قمصان وسراويل سود ولحى لم تحلق منذ أيام. حالة حداد تام وغبار كلسي تثيره السيارات المارة أو

تسفوه الرياح التي تجوس خلال الأرجاء يحجب النهار ليصنع نهاره الخاص كالغبش.

صراخ وعويل وبكاء ولطم صدور وخمش خدود.. موكب جنائزي موحد. تجمعات صغيرة أمام الغرف والأقفاص والقبور الراقدة في العراء تحمل شواهدها. قيامة تقوم ودوي هائل في إطار موحد .كان هناك قبور تملأ الآن ،تحشر فيها أجساد غضة والسيارات تنتظر. نسوة يفقدن الوعي من شدة اللطم .كان هناك من جاءوا لمناسبة الأربعين أو من جاءوا لمناسبة السنة أو من جاءوا للزيارة لمناسبة الجمعة الحزن هو السيد المطاع..

الطرق تقطعت من وإلى المقبرة ،وتركت السيارات على مسافة بعيدة.. والمواكب تترى،عيون زائغة تبحث عن قبور ذويها.. قد يضل البعض غاياتهم فيستعينون بالدفانين الذين يرشدونهم إليها،والمقبرة مقسمة إلى شوارع عريضة وأخرى فرعية وأزقة وساحات، وكان في النية تزويدها بالكهرباء وإشارات المرور الضوئية وأن يطلق على الشوارع الرئيسية أسماء الأجداد العظام ،فقد يحمل أحد الشوارع اسم سعد ويحمل آخر اسم القعقاع.. فيما تكون هناك ساحة باسم الفتح أو باسم قائد النصر ، وكانت سورة ياسين تتردد في كل مكان.

****

طلب مني الزين ذات امتحان أن أكتب له موضوعا لدرس الإنشاء.. لكنني لم أفعل كالعادة .كنت أعمد دائما إن طلب أحد

أبنائي مني كتابة موضوع في الإنشاء إلى شرح الموضـــوع .. أشرحه بلغة بسيطة وأحفز ذهنه على تمثل الموضوع وكتابتـــه بلغته الخاصة وأسلوبه الخاص، وكانت طريقة ناجحة. قلت له:

-الحروب حماقات كبيرة بل هي جرائم يشعلها تافهون تتحكم بهم عقدة النقص. قد تندلع من عود ثقاب لتحرق بلدا بكامله أو بلداناً. النار هي النار حتى قبل أن يخترع اللورد نوبل البـــارود. السيوف تقدح ناراً وهي تصطدم ببعضها والرماح تقدح شـــرراً الناس مجانين قتلة يا ولدي. فنحن أبناء القاتل قابيل الذي قـــدم الدم قربانا فلم يتقبل منه وقدم هابيل الزرع قربانا فتقبل منـــه.. فقتل قابيل أخاه.. هكذا بكل بساطة وهكذا هـــي الحـــروب، كـــل الحروب الصغيرة والكبيرة.. من أجل ناقـــة دفعتهـــا غريزتهـــا فرعت في حمى متعجرف مستبد سمى نفسه كليبا. جساس ثـــار لناقة خالته البسوس على خلفية شعور بالظلم والإهانـــة فقتـــل كليبا.. فقام المهلهل ليشعل حربا لمدة أربعين عاماً، لا يرضـــى بقتل العالم كله بشسع نعل كليب ، أو من أجل فرسي سباق كمـــا في مسلسل حروب داحس والغبراء التي استمرت أربعين عاما !

ديوان العرب ثلثاه حرب وضرب ودم يـــراق وفلـــق جمـــاجم وتقطيع أوصال ولا صوت للسلم ،إلا صوتا ضعيفا لداعية ســـلام عاش في خضم الحروب اسمه زهير بن أبي سلمى.. لو عاش اليوم لاستحق جائزة نوبل للسلام . وما الحرب إلا مـــا علمـــتم وذقتم ،فتعرككم عرك الرحى.حروب الإسكندر المقدوني وحروب

الفرس والـــروم والعثمـــانيين والحـــروب الصـــليبية،والحربان العالميتان .. هذه هي الحرب يا ولدي.

رفع الزين وجهه إلي، رفت ابتسامة على شفتيه .

– وتريدني أكتب شيئا كهذاعن الحرب؟سأودي بكم جميعا .

– هذا الذي أعرفه عن الحرب، لا أحد يحب الحرب ولا أحد يدعو للحرب، تستطيع أن تكتب ما تشاء.مجّد الحرب المفروضة علينا، مجّد المقاتلين الذين يرسلون إلى جبهـــات القتـــال بغيـــر إرادتهم، لأنهم غير مقتنعين بالسبب الذي من أجله أرسلوا إلـــى الحرب .إنهم شهداء حقا لا لأنهم قتلوا في سبيل الله ولكن لأنهم مكرهون على الحرب،هل رأيت أم معتز هذه الأيام؟ كيف هي ..

– كغيرها من الأمهات .. بكت ابنها دما.. لطمت .. ولكن مـــا الفائدة .. هل تستطيع أن تعيده للحياة.

– مستحيل، ذهب كما ذهب أبوه.

– هل أنت متأكد انه قد مات يا أبي..؟

– الله أعلم، ولكن ألم تقل لي إن رجـــلا زارهـــم وأعطـــاهم شهادة وفاته ؟

– نعم.. رأيتها وقرأتها ورقة خضراء تحمل خـــتم مستشـــفى مدينة الطب ووزارة الصحة.. قرأت اســـمه والجـــنس والعمـــر وسبب الوفاة.

– نوبة قلبية.

– نعم...

حين تسلمت الورقة الخضراء ذاتها.. سألت نفسي .. لماذا هي خضراء هذه الورقة التي تؤرخ لنهاية الإنسان.. لماذا لم يجعلوها حمراء أو صفراء أو زرقاء.. اللون الأخضر يوحي بالأمل عادة .. ولكن أي أمل تحمل شهادة الوفاة ؟ ربما يكون أملا لا يختلف عن مركز شرطة الأمل.

كان علي أن أستنسخ أكثر من عشرين نسخة من الشهادة الجنود والموظفون من أقارب الدرجة الأولى الذين حضروا الفاتحة وتركوا وحداتهم أودوائرهم لعدة أيام ،أخذوا نسخاً منها لتقديمها لهم ليبرروا سبب تغيبهم بل إن آخرين من غيرالأقارب أخذوا نسخا مستغلين مقاربة الأسماء فغابوا ثلاثة أو أربعة أيام. شهادة الوفاة تفيدنا في المعاملات الرسمية المدنية والعسكرية .. فالدولة لا تخصص قطعة أرض للشهيد لتكون له مثوى أخيرا، بل تخصص قطعة أرض أخرى لعائلته، في مكان بعيد عن المقبرة .. في مسقط رأس الشهيد تحديدا، وقد تلعب الواسطة دورها فتخصص للعائلة قطعة أرض في بغداد ربما ..

العائلة تتصرف بقطعة الأرض كما تشاء، قد تبيعها، وقد تبني عليها داراً .. الزين ينام تحت الثرى في وادٍ غير ذي زرع ونحن نفكر بحديقة غناء في مقدمة البيت الذي سنبنيه، نخيل وزيتون ورمان، بيت بواجهة عريضة تعلق بها الثريات. أحد المسؤولين احتاج إلى رافعة عملاقة لتعليق ثريا ضخمة في واجهة داره.

ذات صباح قالت زوجتي:

- البارحة حلمت حلماً غريباً، كنت أبني بيتاً، كنت صغيرة، ألعب ببضع طابوقات، وبجانبي رزمة من فئة العشرة دنانير. كانت ملطخة بالدم .خرج الرجل من الصورة في الورقة النقدية وأظنه الحسن بن الهيثم، نزع عمامته وراح يبكي، كانت لحيته ملطخة بالدم، أرى أن لا تتورط ببناء البيت.

- أي بيت؟

- على قطعة الأرض التي استلمتها.

- لم أستلم أية قطعة أرض.

نظرت إلي غير مصدقة .قررنا عدم ترويج أية معاملة للحصول على أي شيء، لكن أكثر من واحد نصحنا بأن هذا يعني رفضنا هدية الحاكم بأمره،وهذايعرضنا لما لا تحمد عقباه.

أكمل الأسعد دراسته الثانوية، والتحق بجامعة الموصل مع الأميرة ،والحرب لم تنته بعد .. صرت أكثر اطمئنانا على الأميرة مادام أخوها معها .. يروحان ويجيئان معا .. انسحبنا إلى حدودنا الدولية وطال القصف المدفعي مدينة البصرة .. الحرب لا تعرف الرحمة ولا الأخلا قصفنا بالطائرات والصواريخ سوقا شعبية بالأهواز،فراحوايقصفون البصرة بالمدفعية الثقيلة .. يستهدفون مكانا ما . ثم يعدون الوقت الكافي لوصول سيارات الإسعاف والإطفاء إلى المنطقة المنكوبة فيقصفونها ثانية فتكون الضحايا أكثر .. مجرد مباراة في إيقاع الخسائر كل بالطرف

الآخر .. ومن هم الخسائر دائما؟ .. إنهم البؤساء والفقراء والكادحون والجائعون .. صار لحمزة ثلاثة أولاد .. وهو ما يزال يقاتل .. يأتي عند الإجازة .. ضاحكاً .. يقول لي:

– ماذا علي أن أفعل غير ذلك، كلنا مجبرون على القتال، والله خير حافظا.

كان يعمل في الإجازة ليوفر نفقاته ونفقات بيته وكانت إجازته قد تمتد إلى شهر أحيانا، فقد كان يطبق قاعدة ورق تسد.

لم يتبق أمام الزين إلا سنة واحدة .. بعدها يلتحق بالعسكرية .. يصنفونه كما يشاءون ويرسلونه إلى أي مكان.

بدأت التوابيت الملفوفة بالأعلام تشاهد في الساحات العامة والشوارع لتفرغ حمولتها في مراكز الشرطة والفرق الحزبية .. تابوت محمول على سيارة ،ملفوف بالعلم .. طافوا به كثيراً لم يجدوا أهله .. العنوان المثبت لديهم لا يدل على دار سكن .. المحلة والزقاق ورقم الدار الدار نفسها .. لكن ،هناك حزبيون بملابس زيتوني وبنادق كلاشنكوف أخمص ونصف أخمص ومسدسات أنيقة .. يقفون عند الباب. مل المكلفون بالمهمة من البحث، لم يكن أمامهم إلا أن يسلموه للفرقة الحزبية التي تحتل بيتا يحمل رقم المحلة والزقاق والدار المثبت لديهم في الورقة .. دهش مسؤول الفرقة، وقال:

– كان هذا بيت أناس سفَروا إلى إيران، ونحن هنا منذ خمس سنوات. قرأ اسم الشهيد ..

– نعم ،هذا الشاب من الأنصار في منظمتنا،وقد ذهب في قاطعنا للجيش الشعبي،ولكن،لماذا أعطى عنوان بيته الذي كان ؟

صمت بعض الوقت ،بدا حزينا، راح كأنه يتذكر .. هز رأسه

– لم يعد له إلا هذا البيت ..

أمر، فأقيمت الفاتحة على روح الشهيد في الفرقة الحزبية .. علقت على الحائط لافتة سوداء مكتوبة بخط أصفر .. وفوقها علم العراق!

إستدعي مسؤول الفرقة إلى قيادة الشعبة، وجه إليه الاتهام بالتعاطف مع الهاربين إلى إيران.

– إنه أحدأعضاء منظمتنا،وضمن قاطعنا للجيش الشعبي ..

– وليكن .. تصرف غير مسؤول ..

قررت لجنة الانضباط خفض درجته الحزبية إلى نصير .. لم يقل شيئاً ولم يعترض ..ذات يوم كان يقف في باب الفرقة ذاتها ،يحمل بندقيته حارسا .. يؤدي التحية لمسؤول الفرقة الجديد ..الذي وشى به ،كان ذلك إمعانا في الإذلال..

الهدوء يغلف كل شيء .. كانت بندقيته في يده .. رفعها بهدوء إلى الأعلى قليلا .. وضع فوهتها تحت حنكه، أحس ببرودة الحديد .. ضغطها .. ثم ضغط الزناد .. تك ..انفجر شيء في الوجود .. هرع من كان في الداخل ..البندقية مثبتة إلى الأرض، يداه تمسكان بها بعنف وهو يجلس القرفصاء متشنجا وأمامه بركة دم .

* * *

هذه المرة جئت لزيارة المقبرة ،أقصد القبر وحيدا .. لأيام شعرت بصدري ضيقا حرجا، فقررت أن أزور المقبرة وحيدا .. فالصحبة تفسد الزيارة وتعطل التأمل .. والدمعة حين تخرج منفردة بلا رقيب يكون وقعها أكبر .. أحسها تطلع من تجاويف القلب مثل نسغ صاعد تغسل ما في طريقها فتنعش الروح وتورث إحساسا بالتطهر ..

حين كنت صغيراً، كنت كثير البكاء، لأي سبب وبدون سبب أحياناً،تختلج عضلات وجهي، فمي عندما أريد ثم أنخرط ببكاء صامت ،الآن فقد أقلعت عن عادتي تلك .. فأنا أبكي مرة في العام .. أو مرتين .صبيحة العاشر من محرم الذي يوغل بعيداً بعيداً في القدم إلى أكثر من أربعة عشر قرناً .. يوم استشهد الحسين بن علي بن أبي طالب وحيداً، ليس وحيداً بالضبط وإنما مع نفر قليل من آل بيته وأصحابه الذين آثروا الموت على الخنوع للطاغية فأبوا أن يفارقوه في ساعة العسرة ..

في ذلك اليوم من كل عام أقفل علي الباب من الداخل، وأظل اتشرب قراءة عبدالزهرة الكعبي للمقتل . كما يقرأه كل عام، فأحس أني سامعه لأول مرة .. أستمع باستغراق شديد وأتماهى بالحدث، أعيشه بكل تفاصيله .. أسمع صليل السيوف ووقع سنابك الخيل ولهيب الحرائق. واستغاثات النسوة والأطفال طلبا للماء .. بعد أن أحرقت القبائل خيام الحسين .. صوت أول من

ثار في الإسلام على الظلم والظالمين يخترق فضاءات الزمن، يذكرنا بكل شيء. الظلم والإحساس بالظلم .. الثورة والرفض .. النظر إلى الأمام بعين ثاقبة تحرق كل الدناءات، وكل المغريات العقيمة .. ثائر ترك الدنيا وراء ظهره ونشد الخلود .. لكنه لم يكن خلوداً طوباوياً ،كان خلوداً من حياة .أظل أستمع وأستمع .. حتى إذا وصل عبد الزهرة الكعبي إلى:

عشيره شالته بعز الظهيره

كل من عليهم شالته الغيره

بس ظلوا الما عدهم عشيره

عندها أنخرط ببكاء يهتز له كياني. لا أدري لماذا يهزني هذا المقطع بالذات ،أتماهى مع الحسين في توحده وغربته وثورته، الحسين مات غريبا.. كما كان الإسلام غريبا في عهد الملك الفاجر .. كلنا غرباء.. غربتي مضاعفة .. وصدري ضيق حرج، وعاشوراء تملأ الرحب .. لابد أن أذهب الآن إلى المقبرة قلت في نفسي .. إن أحداً يدعوني، وقوة جاذبة تسحبني عبر المفازات التي تفصلني عن القباب الذهبية التي تبرق تحت ضوء الشمس الساطعة. يممت صوب النجف .. أديت مراسيم الزيارة ثم اتخذت طريقي نحو المقبرة. أوصلني شاب بسيارة أجرة الى المقبرة عبر الشوارع الكلسية، والغبار الأبيض يتناثر.. كانت المقبرة خالية .. فاليوم هو الثلاثاء .. والزيارة يوم الجمعة .. كان الغبار الذي تثيره السيارة يندفع بفعل الريح بعيداً عنها. مثل

ذيل طويل أبيض، ثم أراه يساقط ويحط على القبور العالية والصور خلف الزجاج، الصور التي تخفي وراءها ضحكات وابتسامات وأماني وتطلعات وأحلاما ورغبة وشوقا إلى الحياة. كل ذلك انطفأ بفعل رصاصة غادرة أو شظية قنبلة أو صاروخ في لحظة مجنونة من لحظات الحرب ..أرواح بعمر الزهور حصدها الموت بمنجله الضخم يقطر دما عبيطا ..

كانت المقبرة خالية تماماً .. يستوطنها سكون غريب .. كنت أسمعه على شكل طنين لا أعرف مصدره .. بدت الشمس تسقط على الأرض وكأنها خيوط من نحاس ودخان ..

قال لي الشاب : هل أنتظرك يا عم؟

قلت له: لا ..

تقدمت نحو باب الغرفة المصبوغ باللون الأخضر الفاقع .. فتحت القفل، وسمعت تكته الخفيفة في السكون ودخلت .. واجهني قبران .. توأمان، ينامان الواحد جنب الآخر متآخيين بسلام أبدي يكسوهما غبار أبيض.. الزين والأميرة .. ينامان جنبا إلى جنب، حين رأياني، نهضا ضاحكين مستبشرين ، جاء أبوهما لزيارتهما .. تقدما نحوي معانقين .. قرأت سورة الفاتحة ثم قرأت سورة ياسين، أشعلت شمعتين .. كل واحدة على قبر .. وعودي بخور .. راحت الشمعتان تتراقص ذبالتهما وحيدتين غريبتين في ظهيرة المقبرة .. وتصاعد خيطان من دخان أزرق رفيع ارتفعا في فضاء الغرفة ثم تشابكا فكانا خيطا غليظا ..

شممت الرائحة الزكية، أحسست الدخان يخدش عينـــي اللتـــين كانتا مبللتين بدمع ساخن .. كنت أبكي كمـــا أظـــن .. وكانـــت الدموع تنساب بصمت .. أحسستها تغسل جوانحي، وكأنها تأخذ معها شيئا متكلسا في الأعماق .. نظرت إلـــى صـــورة الـــزين المعلقة فوق القبر. بدت ابتسامته تكبر حتى تحولت إلى ضـــحكة مشرقة ، ثم نظرت إلى إكليل الورد فوق قبر الأميـــرة ،وبدلـــة الزفاف بلون زهر التفاح .. نهضت واتجهت نحو الباب. أعـــدت قراءة سورة الفاتحة ثم أغلقت الباب .. نظرت في الأرجاء .. لا شيء سوى الصمت الرائن والقبور..

فتحت باب السيارة وجلست خلف المقـــود .. ألقيـــت نظـــرة أخيرة على الباب الأخضر.كان القفل ما يزال يتأرجح . هممـــت بإدارة المحرك حين أحسست بضغط الهواء على جانبي الأيمن .. التفت .لكن رقبتي تصلبت رغما عني فلم تطاوعني على إكمـــال التفاتتي .تجاسرت فنظرت بطرف عينـــي .. أحســـت بكيـــاني يتزلزل .تجمدت أوصالي مثل تمثال من ثلج .ياإلهي ..أية معجزة هذه؟هو الحلم أو الكابوس .. الأميرة تجلس إلى جـــانبي علـــى المقعد المجاور، ترتدي بدلة زفافها تلك التي تركتها قبل لحظات فوق القبر في كيس النايلون .. بدلتها تلك البيضاء بلون زهـــر التفاح ،وإكليلها الجميل.ترددت قليلا قبل أن أسمع صوتها..مـــا بك ياأبي؟هيا .. لنذهب .الجو حار هنا لا يطاق .. وهذا الغبار ..

ثم أخرجت مروحة من ورق .. كنت جئتها بها من روما .. مروحة صينية على شكل نصف دائرة مزينة برسومات جميلة .. قلت لها ..

- آه .. صحيح ..

أدرت محرك السيارة .. سمعت الهدير الناعم في صمت المقبرة .. ثم انطلقت عبر الأزقة الملتوية .. الطريق ذاته الذي سلكته قبل قليل .. حاولت نسيانها وعدم الالتفات جهة اليمين حين سمعتها تقول ..

- من أين يا أبي .. أراك أخطأت الطريق .. هل نسيت؟

- لا .. بالتأكيد .. هذه هي الطريق الموصلة إلى المدينة ..

- أية مدينة يا أبي ؟هذه هي المرة الثالثة،أنسيت أننا ذاهبان إلى بيتي ؟

التفت إليها رغما عني .. كانت هي ابنتي ذاتها .. الأميرة التي بكيت عند قبرها قبل قليل .. وأشعلت لها شمعة وعود بخور ..

- لا .. لم أنس .. لكنني تصورت أنك تريدين الذهاب لزيارة الإمام .. ألم تحدثيني عن رغبتك من قبل؟

- نمر بالبيت أولا .. نرتاح قليلاً .. ثم نذهب معاً .. مبروك عليك هذه السيارة .. متى تعلمت قيادة السيارة؟

- منذ وقت طويل، ولكنني لم أكن أمتلك سيارة.

كانت تشير علي ،وتحدد لي مساري من هنا ،إلى اليمين .. إلى اليسار .. احترس .. هذا طريق وعر،من هنا .. فجأة قالت:

- توقف..

- نعم .. هذا بيتي..

كنا بالفعل أمام بيت حديث .. صغير وجميل .. ركنت السيارة ونزلنا، في مرج أخضر. كان الشارع مبلطا ومضاء بالكهرباء .. تقدمت نحو البيت عبر ممر من أحواض أنيقة غرست فيها أنواع الزهور والأوراد .. زهور لم أر مثلها في حياتي، منسقة بشكل جميل يأخذ بالألباب . ثم وصلنا باباً عريضا سامقا من خشب الأبنوس الأسود،حين اقتربت منه فتح بشكل آلي كما تفتح أبواب الفنادق من الدرجة الأولى، دخلت وراءها ،استقبلتني برودة ندية برائحة بخور وعطور .. أحسست بكياني يذوب، نسيت تعبي وكل حزني .. أشارت إلي :

- تفضل يا أبى .. اجلس..

جلست وجلست أمامي .. ببدلتها بلون أزهار التفاح ..

- أراك مهموما يا أبي ،تفكر بي ،لماذا؟ أنا بخير .. صحيح أن البيت صغير .. لكنه مريح، وأنا كما تعرف أقنع بالقليل .. أشارت بيدها وقالت:

-هذه صالة .. وهناك غرفة نوم .. وغرفة للأطفال .. الأثاث كما ترى بسيط لكنه يسد حاجاتنا اليوم تنقصنا الثلاجة .. سنشتريها بالتقسيط، لدينا تلفزيون صغير وطباخ منضدي وغسالة صغيرة وغرفة نوم ..ماذا يريد الإنسان أكثر من هذا ..

غدا نستطيع شراء ما ينقصنا .. لكنك يا أبى لم تخبرني عن زواج أخي الأسعد .. وددت لوأنه حضر..

– كان سيأتي معي . هو وزوجته، لكنها كما تعرفين فتاة غريبة لم تتعرف عليك .. سنأتي جميعا لزيارتك في العيد .. اشتقت إليكما فجئت بمفردي .. الزين .. كيف هو؟ هل يزورك؟

– بيته مجاور بيتي، على بضع خطوات .. بعد أن نرتاح نذهب إليه .. لماذا لا تبحث له عن بنت حلال ..

– بالتأكيد .. سأفعل .. هو الآن في الخامسة والعشرين .. جاء دوره الآن بعد ان تزوج أخوه .. كيف هو؟

– بخير .. لكن الجرح اللعين في رقبتي لما يندمل ..

نظرت إليه .. أثر بني يمتد فوق الحنجرة .

– لم يبق منه إلا أثر خفيف .. خطيبك؟

– في العمارة .. جاءني مرتين .. لم يحدد موعد الزواج. أخشى أن يكون غير رأيه.

– حول..

– الزواج .. أراه قد تغير .. من تراه يرضى بفتاة بجرح كهذا في الرقبة؟

– أنت واهمة .. كما أعتقد.

– فجأة فتح الباب .. هبت لفحة هواء حار من الخارج .. دخل الزين .. كان يحمل جرحه المتلألي مثل قنديل أحمر عند الخاصرة .. تقدم مني وظل واقفا في مكانه، ثم جاء ابن أختي ..

يده مضمومة على حفنة عشب جبلي بأزهار حمـــراء .. وابـــن عمي .. ثم جاء ابن أخي منتصب القامة رغم أن ساقه اليمنى ما تزال في الجبائر .. وبدت ذراعه شفافه تحمل مسامير التجبير . ثم جاء صف من الشهداء يحملون جراحاتهم .. امـــتلأت بهـــم الغرفة الصغيرة .. كانوا يتقدمون، أبصرهم وأنا أعجب كيف أن الغرفة اتسعت لهم. نظرت إلى ابنتي ونهضت .. وضعت كفهـــا على كتفي .فالتفت .. طالعت عيني لحيته البيضاء بلون الثلج..

– هل أقرأ سورة ياسين على القبر؟

– تفضل ..

بدأ يقرأ .. كان صوته عذبا .. رقيقا. وكانـــت تلاوتـــه شجية .. وضعت يدي في جيبه وبها بعض النقود .. وغـــادرت إلى سيارتي التي ما تزال مركونة في مكانها .. انطلقت بها فـــي دروب المقبرة .. أصوات التلاوة تتردد في أذني ..

فجأة تسمرت في مكاني.رأيت شابا وفتاة يقفان على الطريق، أشار الفتى لي بيده فتوقفت .. قال لي:

– هل تستطيع أن تأخذنا معك إلى المدينة؟

كانت الفتاة ترتدي بدلة بلون زهر التفاح.

جلس الفتى إلى جانبي، وجلست هي في المقعـــد الخلفـــي .. رحت أختلس النظر إليها في المرآة .. كانـــت شـــديدة الشـــبه بالأميرة. ولكن ما الذي جاء بها في عز الظهيرة إلى المقبرة .. ولماذا هي ترتدي بدلة الزفاف هذه بلون زهر التفاح.

لم أشأ أن اسألهما، لكني فجعت حين طالعني في المرآة خط بني ينحدر من أسفل الحنجرة في رقبة الفتاة .. وكانت يدها ما تزال تحمل الكانيولا .. لم أتمالك نفسي .. صرخت ..

– من أنتما ؟وماذا تريدان .. لماذا ترتدين بدلة ابنتي تلك التي خلفتها فوق القبر .. بدلة الزفاف تلك بلون زهر التفاح .. ولماذا هذه الكانيولا؟ كنت أصرخ بصوت عال ..السكون يغمرني بشكل قاس ..وأنا أتصبب عرقا ..

جاءت سيارة، توقفت أمامي .. كانت سيارة أجرة، يقودها الشاب نفسه الذي أوصلني إلى المقبرة.

– تحتاج إلى مساعدة يا عمي؟

– خذني إلى الإمام..

صعدت إلى جنبه . نظر إلى بعطف وقال:

– لو رضيت فبقيت أنتظرك ،الجو حار .. والسيارات قليلة.

وصلت الضريح ،توضأت وصليت، وضعت رأسي على صندوق الضريح ،انخرطت ببكاء أخرس .كان الضريح شبه خال فقد سكن كل شيء .. انطفأت نار الحرب الأولى .. نحن الآن في إجازة قصيرة .. ليس ثمة جنائز ملفوفة بالأعلام السود تطوف فضاء الضريح .. إلا ما ندر.توقفت آلة الحرب الجهنمية بعد ثماني سنوات من العمل المتواصل .أصابها عطل فتوقفت ،انشغل الموت عنا بعض الوقت، أظنه قد شبع منا. لم يعد لحمنا

يعجبه،ربما ذهب إلى مكان غير بعيد عنا بعض الشيء ، لكنه ما يزال يربض غير بعيد، يتربص بنا الدوائر.

لم تكن الأميرة معنا، حين ذهبنا إلى المقبرة في زيارة السنة.

قبل حين بدأت تشعر بالتعب .. لم تعد تلك التي أعرفها نشيطة متوقدة، كنت أنظر إليها فأراها تذبل، غدت شاحبة، قلت: لعلها حادثة أخيها .. لكن ذلك أمر انقضى عليه عام ولم يظهر تأثيره على أي منا سواها ..

أخذتها إلى عيادة شعبية قريبة منا، فيها طبيب تربطني به صداقة قديمة من نوع خاص .. فحصها .. بدقة .. نظر إلي بعينيه من وراء نظارته الطبية البيضاء .. وقال مبتسماً:

– تتدلل عليك .. ليس ثمة شيء يذكر .. التهاب بسيط في اللوزتين .. كتب لها وصفة الدواء. واظبت على تناوله لعدة أيام لكنها لم تتحسن،الأعراض ذاتها، دوار حاد، ثم شكت بأن عينيها بدأتا تزغللان، وأنها لا تستطيع التركيز على الأشياء عند النظر إليها أو التفكير بها. عانت من ارتفاع طفيف في درجة الحرارة أولاً ثم بدأت تنتابها حالة من القيء، لا يستقر الطعام في معدتها أنظر إليها وأنا أتمزق، أرى في عينيها اعتذارا .. ثم قالت آسفة، يا أبي أشعر أنني أتعبتك .. أكاد أجن حين أسمع منها ذلك وهي تعاني بشجاعة الصابرين ..

في أحد الأيام جاءت سالكة الطريق ذاته الذي تسلكه كل يوم وهي عائدة من مدرستها .. كنا ما نزال من رمضان الذي ما

يزال في آيار للسنة الثانية. الطريق ذاته الذي سلكه الزين ذات ليلة في رمضان الماضي، ونحن ننظر إليه حتى غيبته عطفة الزقاق ، الطريق ذاته الذي سلكناه نحن حين تبعناه خلسة وأنا أتوق لأن اذهب معه إلى الشارع الرئيسي لاعرف وجهتهم بالضبط، وأمه تريد أن تشبع من شوفته .. ثم سلكته هي الأميرة حين وقعت الواقعة.

كنت أقف عند الباب أنتظر أحدا .. رأيتها تتقدم بخطى متثاقلة كانت تجر قدميها بصعوبة حتى أنني عجبت كيف استطاعت الوصول بهذه الخطوات المتعبة. بدت لي عودا مجللا بالسواد، رفضت خلع الأسود حتى بعد مرور سنة على استشهاد أخيها.. هالني منظرها .. أحسست بي أتمزق ،لكنها عندما لمحتني أنظر إليها ابتسمت بحنان، مثل حنان الأم .. أنا الذي سميتها أم أبيها، لأنها كانت تحدب علي أكثر مما أحدب عليها .. أتذكر عندما أسقط طريح الفراش مرضا ،كيف أنها تلازمني، لا تعرف ماذا تفعل .. تظل ساهرة حتى الصباح مثل أم انتاب ابنها المرض تتردد علي بين غرفتها في الطابق الثاني وغرفتي ،أسمع خطواتها كل حين .أقول لها: لماذا يا ابنتي ،أمها تقول لها ذلك..

حاولت أن تتماسك بشجاعة، فردت قامتها بعسر وشدت خطواتها، حاولت أن تسرع،لكنها لم تستطع ،توجهت إليها التقيتها في منتصف المسافة إلى البيت .. ألقت بنفسها بين ذراعي . حاولت أن ابتسم:

- ها ..

- قضيت اليوم نائمة في غرفة المديرة .. المديرة قالت لي اذهبي وارتاحي في البيت ..

- كان عليك أن تأخذي سيارة.

دخلنا سوية .. استقبلتنا الأم المفجوعة، نظرت إلينا بخوف، أطل من عينيها الواسعتين.

- قلت لك لا تذهبي اليوم .. يلعن أبو المدرسة .. ثم التفتت إلي وقالت:

- كيف؟ ماذا تنتظر .. خذها إلى طبيب أخصائي ،إلى الباب الشرقي ،صاحبك هذا لا يفهم في الطب ،باراسيتامول .. هه ..

- كان المساء قد بدأ يهبط ،ذهبت معها دون أن نفطر .. بحثنا عن طبيب العيادات مغلقة .. لا يفتحون إلا بعد الفطور .. وجدنا طبيبا .. قال بعد أن فحصها بدقة:

- اعملوا تحليل الدم بسرعة .. في العمارة الثانية طبيب يفطر مثلي في العيادة. كان شابا لطيفا .. استقبلنا بترحاب وقال:

- سحب سائل من العمود الفقري..

- استغربت كلامه، وقلت له:

- الطبيب قال سحب دم.

- لا فرق، هذا أحسن..

طلب منها أن تتمد على سرير الفحص .. غطاها بالشرشف، ثم خرج وطلب مني أن أحرر مساحة صغيرة من ظهرها، غرز

الإبرة الطويلة في قلبي .. فصرخت آخ .. أما هي فلم تفعل شيئا سوى أن عضت شفتها السفلى..

سحب السائل .. ضخة في قنينة، ثم قال:

– إلى المختبر بسرعة .. هناك مختبر يفتح أبوابه الآن ..

صاحب المختبر، قال:

– لا وقت لدي .. أريد أن أغادر .

رجوته أن يساعدنا .. قلت له إننا لا نستطيع تأجيل ذلك .. لم يخيب رجائي . بعد ربع ساعة أعطاني النتيجة، قال لي:

– ارجع الى الطبيب الذي أرسلك..

نظر الطبيب إلى التقرير .. نظرت في عينيه .. رأيتهما تصعدان الى أم رأسه ثم صفر .. رغما عنه.

– ها .. خير .. دكتور

– لا شيء .. لا شيء

رأيته يحاول أن يهرب من مواجهتي .. أدركت أن شيئا خطيراً قد حدث .. حين نزلنا من العيادة .. قالت:

– الحمد لله .. انه لم يكن مرضا خطيراً.

قلت لها:

– الحمد لله على كل حال.

وصلنا البيت .. قالت أمها:

– ها .. بشروا ..

ابتسمت بألم .. قلت:

- لا شيء .. ثمة التهابات في الدم.

زارني تلك الليلة، صديق يعمل صحفيا في مجلة معروفة .. استقبلته على كره فقد كنت في مزاج سيء .. أعرفه منذ أيام العمارة .. منكت بارع ومسل، لكنه نزق بعض الشيء .. كنت أتجنبه .. ولكنه وقد حل ضيفا علي فلا بد لي من إكرامه بأي وجه .. شربنا الشاي وأكلنا البقلاوة، وهو يوالي سرد أحاديثه غير المترابطة ونكاته الباردة عن الحرب التي طالت، وقد راجت يومذاك نكات عديدة كنا نتداولها في كل مكان، سمعته يقول .. إن الحرب استمرت حتى عام ٢٠٣٥ حين ظهر مذيع التلفزيون الشاب الذي غدا شيخا هرما وهو يقرأ البيان رقم ٢٠٣١٥ الصادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة ويعدد فيه تضحياتنا خمسة هنود وسبعة من بنغلاديش .. نكتة باردة حقا، لم أضحك لها، أما هو فقد راح يضحك، حتى دمعت عيناه، ثم التفت إلى وقد أحس متأخرا بأن المقام لا يناسب إلقاء نكت سمجة كهذه .. اعتدل في جلسته وتحول إلى الجد، وسألني عن حقيقة الأمر فشرحت له أنني قادم للتو من المختبر .. وأن نتيجة التحليل كانت مرعبة، لكني أحاول أن أخفي الأمر عن الجميع، نظر في وجهي لحظة، ثم قال:

- المختبرات الأهلية .. ها. اسألني عن الفضائح التي تحدث فيها..

شعرت بأنه جاد هذه المرة.

- ماذا تعني؟

- النتيجة خطأ في خطأ.

- كيف؟ مختبر محترم يديره شخص يحمل درجة دكتوراه في التحليلات المرضية، وتأتي لتقول لي: خطأ في خطأ.

- اسمع، قال لي.. قبل سنوات أردت أن أعمل تحقيقا للمجلة التي أعمل فيها عن المختبرات الأهلية، زرت عددا منها .. استجوبت لقائمين عليها ثم ذهبت إلى مختبر مشهور في الباب الشرقي مقابل تمثال السعدون ..

- نعم..

- سلمت على المسؤول عن هذا المختبر، شرحت له غرضي، فقال لي:

- اجلس..

نظرت إليه رأيت فيه رجلا على جانب من الحكمة والاتزان، قال لي:

- سأروي لك هذه الحكاية، ومنها تعرف حال المختبرات الأهلية عندنا ..

- نعم .. قلت

- جاء رجل إلى أحد المختبرات، وهو يحمل أنبوبة اختبار وبها إدرار زوجته الحامل ليتأكد من حالة الحمل. بعد إجراء التحليل ظهرت النتيجة حامل، ففرح الزوج، لكنه لم يصدق النتيجة، وكذلك فعلت زوجته التي أشارت عليه بالذهاب إلى

مختبر آخر لتحليل عينة أخرى من الإدرار، ففعل، وكانت النتيجة غير حامل، أصيب الرجل بخيبة أمل كبيرة، وكذلك زوجته لكنهما لم ييأسا تماما، فذهبا إلى مختبر ثالث فكانت النتيجة حامل، فذهبا إلى مختبر رابع وخامس وسادس، وكانت النتيجة تتراوح بين حامل وغير حامل، وبعد أن تعب الرجل وزوجته من هذه اللعبة السخيفة، بال في أنبوبة الاختبار ودفعها إلى أحد المختبرات .. وظهرت النتيجة حامل.

ضحكت رغما عني..

- وماذا يعني؟ قلت

- خذها غدا إلى مختبر حكومي ... هناك مختبر مشهور، اسمه مختبر الصحةالمركزي،مجاورلاتحادالأدباء..هناك ستتأكد..

ذهبنا في الصباح ..أجرينا التحليل .. كانت النتيجة مرعبة .. تكاثرت كريات الدم البيضاء إلى ضعف ما كانت عليه البارحة .. كتبت الطبيبة المختصة على ورقة التحليل :ابيضاض الدم الحاد *Acute lokimia*

مثل عروس تزف إلى بيت عرسها .. أخذنا الأميرة إلى المستشفى .. أنا وأمها والأسعد. كنا فرحين مستبشرين، يحدونا أمل كبير بشفائها، بعد أن أكد لنا الجميع أن هذا مرض بسيط .. شيء من أمراض الدم .. يمكن علاجه بسهولة.

كان علينا أن نصعد إلى الطابق العاشر من مؤسسة مدينة الطب المطلة على نهر دجلة .

كانت الردهة نظيفة، أنيقة، الأسرة الحديثة المفروشة بالأبيض، والستائر الزرقاء، والممرضات بابتساماتهن العذبة، كل شيء يوحي بالأمل ونحن ضمن حالة الأمل بالشفاء والمغادرة بعد أسابيع معدودة،حيث تنتظرالأميرة حفلة زواجها من الشاب الذي عقدت عليه قرانها قبل استشهاد الزين،كان ما يزال في الجبهة متنقلا بين شرق دجلة وشرق البصرة.

قال لنا الكثيرون: لقد تقدم العلم، وحقق الطب إنجازات رائعة، ولم يعد هناك شيء يستعصي على الشفاء، هكذا كان يقول لنا الآخرون .. أصدقاء ومعارف، أقارب وأولاد عم .. وإخوة

فلماذا لا نستبشر بهذه الأقوال المطمئنة؟

تمددت الأميرة على سريرها .. جاءتها ممرضة شابة .. سلمت عليها .. ثم تناولت أوراقا، وبدأت تكتب المعلومات عنها. سألتها عن اسمها، وعمرها وعملها.

- مدرسة في ثانوية الإشراق.

جفلت الممرضة.

- نعم..

- مالك .. قلت لك مدرسة في ثانوية الإشراق .وابتسمت.

- سبحان الله، قالت الممرضة، البارحة ونحن في ذكرك.

- من أنتم .. وكيف؟

- تعرفين طالبة في الخامس العلمي تدعىرفل عبد الحسين؟

- نعم .. أعرفها .. قالت الأميرة .. طالبة ممتازة..

- إنها أختي. أنا اسمي أمل عبد الحسين..

- سبحان الله..

- حكت لي كل شيء عنك .. إخلاصك في الواجب .. رعايتك للطالبات .. بكت عندما انقطعت عن الدوام .. سأحكي لها ذلك .. ستزورك حتما.

- شكرا لك ولها.

- لا تعتبريني ممرضة هنا .. اعتبريني أختك .. أنا بمثل عمرك .. أكبر من رفل.

- وأنت يا عمي،اعتبرني مقام ابنتك..وأنت كذلك يا خالتي.

- بارك الله فيك .

لم يقف الأمر عند أمل ،التي بدت حزينة رغم شفافيتها، بل اهتم الجميع بالأميرة، بعد أن عرفوا أنها مدرسة فيزياء .. نوع من التعاطف الإنساني ممزوج بشيء من الاحترام والإعجاب، حتى الأطباء أولوها رعاية خاصة بما فيهم رئيس القسم، ويحمل درجة برفيسور بأمراض الدم .. في يوم جاءني أحد الأطباء .. سلم علي ..

- أنا معجب يا أستاذ بعمودك الأسبوعي في الجريدة .. أقرأه بإمعان .. لا أدري من أين تأتي بهذه الأفكار ..

- أشكرك كثيرا..

– وقد قرأت روايتك أحزان في الغابة .. رواية جميلة .. لا أكتمك يا أستاذ أن لي اهتمامات خاصة بالقصة .. أنا قارئ لا يمل رغم مشاغلي بالمستشفى وبالعيادة .. ولي محاولات في كتابة القصة..

– عظيم .. قلت له.

– ولكن هل أستطع أن أعرض عليك بعضا من هذه الكتابات لتعطيني رأيك فيها؟

– بكل سرور قلت.

بدأ الدكتور عدنان محمد علي، وهو شاب يحضر للبورد .. الإشراف على علاج الأميرة .. فكانت أمل عبد الحسين تساعده دائما .. لاحظت أنها حزينة دائما لكن لم أشأ أن أسألها حدد لها دورة علاج لمدة أسبوعين، يجري بعدها فحصا ليعرف مدى استجابة الجسم للعلاج، قال:

– عليكم أن تهيئوا لها كمية من الدم .. نحتاج إلى كيس كل يومين،

– تبرع الأسعد أولاً . ثم تبرع زوجها الذي جاء بإجازة من الجبهة، أفسحنا لهما في المجال ليتحدثا في خصوصياتهما. زوج وزوجة فما دخلنا نحن. حين خرج قال:

– لدي أصدقاء سآتي بهم ليتبرعوا بالدم غدا ..

– حسنا .. قلت له .. وأنا لي أصدقاء كثر في الجريدة

وبالفعل جاء في اليوم التالي أربعة صحفيين .. بينهما فتاة .. وجاء أصدقاء زوج الأميرة .. تبرعوا جميعا .. وحفظنا الرصيد في بنك الدم .. على أن نسحبه ساعة نشاء ،كان الدكتور عدنان يأتي كل يوم، يفحص الأميرة بعناية .. يرسل الدم إلى المختبر لقياس كريات الدم الحمراء .. يوصي بإعطائها كيسا من الدم عند الحاجة، ويزرقها إبرة في الوريد .. يفعل ذلك بنفسه .. ولم نكن نعرف نوعية الدواء، ولم يكن من حقنا أن نسأل كما أننا لم تكن لنا رغبة في طرح سؤال من هذا النوع .. كنا نخاف على الأمل الساكن فينا أن يخدش .. في ردهة الرجال كان شاب دون العشرين يعاني من المرض نفسه .. ويخضع للعلاج نفسه على يدي الدكتور عدنان محمد علي .. زرته ..سلمت عليه رأيته معافى وفي صحة جيدة .. قال لي إنه أنهى دورة العلاج الثانية .. وسيأخذ الدورة الجديدة بعد استراحة أسبوع .. لقد استجاب جسمه للعلاج، ويؤمل أن يغادر المستشفى.

قلت له إن شاء الله.

كان الشاب اسمه رجاء وقد تفاءلنا به، كما تفاءلنا باسم أمل الممرضة،رغم أن زوجتي قالت إنه اسم بنت ..ثم استدركت قائلة

– لا .. تذكرت .. كان ابن جيراننا في العمارة اسمه رجاء أنت تعرفه .. ابن ملاّ فاضل

– نعم .. نعم .. أعرفه

تعلقنا جميعا برجاء، فصار مثار اهتمامنا، ورجاءنا، خاصة زوجتي التي كانت تخصه برعايتها، بعد أن عرفنا أنه من قرية من قرى البصرة، وأنه يتيم استشهد أبوه في حربنا الأولى.

- استشهد أبى في المحمرة .. كان موظفا في جامعة البصرة .. أخذوه في الجيش الشعبي رغم أنه فوق الخامسة والأربعين .. أرسلوه إلى المحمرة .. وعندما اجتاحت القوات الإيرانية مواضعهم وأزاحتهم عن أراضيها .. قتل من قتل واسر من أسر .. ألقى الكثيرون أنفسهم في شط العرب على أمل العبور إلى الضفة الأخرى، فكانوا أهدافا سهلة للقصف المدفعي والرشاشات الثقيلة، والانفلاق الجوي وقد غرق الكثيرون ممن لا يعرفون السباحة.

- وأبوك؟

- كان له صديق في الجامعة نفسها، أصغر منه سنا وأكثر نشاطا، استطاع أن يعبر الشط سباحة .. هو الذي نقل لنا ما حدث وهو صادق. قال إن الوالد رحمه الله كان مصابا بجرح في خاصرته .. ورغم ذلك كان يجهد نفسه بالسباحة .. وكان الشط مغطى بالمئات من الجنود وأفراد الجيش الشعبي .. كانوا يناضلون ببسالة من أجل الوصول إلى الشاطئ الآخر .. شاطئ العراق وقال إنه لاحظ على أبى علامات تناقص همته .. كان الجرح ينزف .. وكانت المسافة المتبقية أقل من النصف .. ساعدته .. سحبته من يده .. لكنني كنت مجهدا أنا الآخر ..

فجأة أفلت يده من يدي .. نظرت إليه .. فتح عينيه لآخر مرة وابتسم، ثم ابتلعته أمواج الشط

– ليرحمه الله .. هل عثرتم على جثته ؟

– لا .. أين نعثر عليها ؟ .. راقب أعمامي وأخوالي شاطئ الشط .. طفت عشرات الجثث بعد أن امتلأت ماء .. لكنهم لم يعثروا على جثة والدي ..قالوا إن جثث العراقيين وصلت الكويت

أنهت الأميرة دورة العلاج (كورس) وجاء الامتحان الصعب .. كنا متلهفين لمعرفة نتيجة التحليل .. هل استجاب الجسم للعلاج؟ .. نذرت الأم خبز العباس وأنا توسلت بالله وبرسوله وأهل البيت أن تكون النتيجة إيجابية .. كنا كمن ينتظر نتيجة امتحان يتقرر عليه مستقبله .. بل أكثر من ذلك .. مثل من ينظر حكم محكمة بين البراءة والإعدام

في الصباح استيقظت الأم، وعلى وجهها علامات الامتعاض والخوف كانت زائغة البصر، قلت لها ..

– مالك ..

قالت:

– حلمت حلما .. لا يفسر بخير

– دعينا من أحلامك.

– لا .. أحلامي لا تخطيء .. رأيت الأميرة في عالم الطيف وقد خرجت من المستشفى .. ترتدي بدلة عرس، وأمامها فرقة موسيقية، طبل وبوق، وهلاهل، وكنت فرحة، أرتدي ثوبا أحمر.

أحسست بقلبي يغوص .. لكنني داريت وضعي .. قلت لها:

- وماذا في ذلك .. حلم خير إن شاء الله..

- لا .. نتيجة التحليل غير جيدة .. أنا أعلم ذلك .. قلبي هو الذي يقول، وقلبي لا يخطئ، لقد جربتني طويلا .. ثم .. الأحلام تشير إلى العكس .. أبي كان يقول ذلك ..

جاء الدكتور عدنان..سحب الدم من ذراع الأميرة .. وأرسله إلى المختبر، نحن لم نتدخل..لم نسأله حتى عن موعد ظهور النتيجة .. كنا نخاف على بذرة الأمل بين جوانحنا أن تموت.

- بعد غد نحتاج إلى الدم .. من أجل الصفائح الدموية

غادرنا المستشفى، قررت في نفسي أن أحصل على الدم عن طريق الشراء .. هناك الكثيرون من الذين يبيعون الدم، أراهم أمام مصرف الدم .. صفر الوجوه، يعيشون على بيع دمهم للراغبين من المحتاجين، الكيس بخمسة دنانير، وهناك الكثيرون من أولاد الأخت، وأولاد الإخوان وأبناء العم لم يتبرعوا بعد.

عند خروجنا من باب المصعد .. وفيما نحن نتجه نحو باب الخروج. فوجئنا بمجموعة من النسوة يصرخن، ويندبن، نظرنا نحوهن متعاطفين، وحين سألنا علمنا أن شابة فارقت الحياة في الطابق الخامس، فما كان من زوجتي إلا أن اندمجت مع مجموعة النسوة الصارخات وانخرطت معهن في بكاء صاخب، وتوجهت للصعود معهن إلى الطابق الخامس ..

استغربت من مسلكها هذا .. سحبتها بقوة

- إلى أين ؟

- دعني أذهب .. أريد رؤيتها.

- من؟ هل تعرفينها.

كفت النسوة عن البكاء، بانتظار المصعد .. نظرن إليها باستغراب .. انتبهت لنفسها، انسحبت وهي تكفكف دموعها.

- ما هذا؟

- لا أدري

بعد الظهر، قلت لها

- أذهب لوحدي

- لا .. أذهب معك.

- لا يسمح بالزيارات هذا اليوم أنت تعرفين ذلك.

- أعرف ذلك .. ولكنني أشعر بأني أحرجهم.

المستشفيات تحدد ساعات معينة في أيام محددة لزيارة المرضى، وكانت تمنع الزيارات في غير ذلك، لكنني وبحكم عملي الصحفي، استثنيت بشكل ما .. وكان موظفو الاستعلامات يغضون الطرف عني عند الدخول في الأوقات غير المخصصة للزيارة، ومن جانبي كنت أرد إليهم هذا الجميل على شكل صحف ومجلات آتيهم بها كل مرة، كذلك لا أنسى الطابق العاشر فأجلب لهم الكتب والمجلات والصحف يقرأها الأطباء والممرضون والممرضات في فترات الاستراحة، وكنت أنفح عمال المصاعد والنظافة والخدمات هدايا نقدية قبل أن يطالبوني بها.

عدنا مرة ثانية إلى المستشفى – جلبت زوجتي معها نصف دجاجة لرجاء وكثيرا من الفاكهة وقالب كيك.

إستقبلنا موظفو الاستعلامات بجفاء .. رغم انهم يعرفوننا، كانوا شبه نائمين، استغربت من مسلكهم، تأخرت المصاعد كثيرا .. استقبلتنا الردهة بوجه متجهم. كانت قبيحة .. صمت غريب، بدت الأسرة قديمة شائخة والشراشف متسخة، كانت هناك قطة تطارد صرصارا شاهدتها لأول مرة .. وكان عامل النظافة عبدو قد تقدم به العمر .. لحية شائبة وملابس بلون التراب.

اقتربنا حذرين .. أعطت زوجتي ما جاءت به لرجاء، ولكنه لم يبتسم حتى ولم يقل كلمة شكر .. هرعت بسرعة إلى الردهة .. كانت الأميرة نائمة ..قالت إحدى المريضات.

– نامت قبل قليل.

لم نشأ أن نوقظها .. نظر أحدنا بوجه الآخر .. أيقنا أن شيئا، قد حدث.

أحست الأميرة بوجودنا.. فتحت عينيها .. حاولت الابتسام ..

– ها .. قالت أمها، ظهرت النتيجة.

– ونعم بالله .. قلت

– الطبيب قال مسالة اعتيادية ألا يستجيب الجسم للعلاج لأول مرة .. هناك محاولة ثانية وثالثة.

لا أدري لماذا قل اهتمامنا برجاء فجأة .. كنا نمر به ونسلم عليه سلاما عابراً حتى هو بدا أقل تعلقا بنا .. كنا نلحظه وقد

تعافى، لم نكن نحسده .. كنا نتمنى له الخير .. وأن يقاسمنا الله هذا الخير وكانت أمل عبد الحسين توغل بالحزن،لاندري لماذا؟

_ أمامنا أمل .. قلت .. مثل الطالب الذي لا ينجح في الدور الأول .. ضحكت

– أمامنا الدور الثاني .. سننجح بامتياز إن شاء الله.

– عمري لم أكمل ،كنت أنجح دائما في الدور الأول

– وهل أنسى ذلك .. كنت متفوقة .. كذلك الأسعد والزين والصغار .. انتم تشبهونني في ذلك .. لم أرسب في حياتي حتى في الامتحانات الشهرية .. إلا مرة واحدة .. في الامتحان الشهري .. كنت في الصف الثاني المتوسط. في أحد الأشهر حصلت على درجة ٤٥ في درس الهندسة، كان هناك درس اسمه الهندسة المستوية .. أنا أتذكر أن الكتاب غلافه من ورق وردي خفيف وأذكر أن مؤلفه أجنبي اسمه سي في دوريل.

– حتى اسم المؤلف تحفظه يا أبي.

– نعم .. لأني عشت علاقة غريبة مع ذلك الكتاب ..فكيف لا أتذكر اسم مؤلفه أو لون غلافه .. حزنت .. كنت يومها في متوسطة علي الغربي المدينة التي خلفتها ورائي في هجرتي الأولى إلى العمارة مسقط رأسي .. كان مدرس الهندسة المستوية من بغداد . أتذكر اسمه داود.. وأذكر أني اتخذت قرارا أن أتغلب على درس الهندسة المستوية وعلى سي في دوريل نفسه وعلى الأستاذ داود .. درست المادة بشكل كامل .. ابتدأت

من الغلاف .. حفظت اسم المؤلف ولم اهتم بالمترجم .. قرأت المقدمة .. وقرأت كل حرف ونقطة، درست النظريات والفرضيات، منطوق النظرية، المفروض، المطلوب إثباته والبرهان .. قرأتها اكثر من مائة مرة، حتى هضمتها واستوعبتها ولم يعد شيء منها خافيا حتى بت أحلم بها في الليل دون أن يؤثر ذلك على مستواي في بقية الدروس .. في امتحان نصف السنة حصلت على درجة ٩٣ .. المدرس نفسه أعجب بي .. ثم صرت من المتفوقين في الهندسة المستوية .. وكنت أشرح النظريات لزملائي الطلبة بعد المدرس

– لكنك لم تدخل الفرع العلمي .. يا أبي.

– متعمدا .. لأني كنت أحب الأدب منذ صغري .. الشعر والرواية .. وكنت أحفظ القصيدة بعد أن يلقيها المدرس علينا مباشرة. أيه .. لقد ذهب كل شيء الهندسة المستوية والأدب ..

– لا .. يا أبى

– أنا الآن بانتظار امتحان الدور الثاني وسننجح إن شاء الله.

لكن الله لم يشأ .. تلك هي إرادته .. فوق كل إرادة ..

كانت النتيجة مخيبة للآمال .. عدم الاستجابة للعلاج. حزنا، وبقي أمامنا الدور الثالث،لأول مرة سألت الدكتور عدنان

– هل هناك أمل؟

– الأمل بالله القادر على كل شيء .. القدير ..

بدا لي شبه يائس، نظر إلي متفحصا ومشجعا .. نظرت في عينيه من خلال زجاج نظارتينا .. قرأت فيهما حزنا .. كان ذلك امتحانا له هو الآخر، كان يتمنى أن تستجيب الأميرة للعلاج، حتى يحقق تقدماً بين زملائه الذين يحضرون للبورد..

ولم تستجب الأميرة للعلاج في الدورة الثالثة.

أراد الدكتور عدنان محمد علي أن يبكي .. لاحظت عينيه تترقرقان بالدمع من وراء نظارته الطبية البيضاء ..

– كنت أتمنى أن انجح في مسعاي .. إنها شابة تستحق كل تقدير وكل خير .. ولكن تلك هي إرادة الله .. هذا هو ما نستطيع تقديمه في مدينة الطب .. أمامكم مستشفى ابن البيطار .. هناك إمكانات متطورة .. أطباء أجانب .. وخبرات.

– تستطيعون أخذها إلى البيت، حتى تنجزوا إجراءات نقلها إلى مستشفى ابن البيطار ..

– هنالك إجراءات أيضاً؟

– بالطبع .. أو تدفعون أجورا عالية .. ولكن لماذا؟ تقدموا بطلب إلى ديوان الرئاسة .. سيوافقون على ذلك.

– هل هناك إمكانية لآخذها إلى خارج العراق؟

نظر في وجهي متأملا .. وقال ..

– أعرف شخصا أرسلوه إلى لندن لعمل حشوة لأسنانه هناك .. أما أنت .. أعني .. نحن .. فلنا الله ..

عدنا بالأميرة إلى البيت .. كانت تبدو بحالة أحسن لمن يراها .. وجه مورد .. كل ذلك بفعل أكياس الدم التي أخذتها ..

كانت الإجراءات طويلة ومملة .. وافقت الدولة في نهايتها على أن تدخل الأميرة مستشفى ابن البيطار .. على أن تخفض الأجور إلى الثلث ..

ذهبنا إلى المستشفى وقد أورق الأمل فينا .. فهذه مستشفى بإدارة أجنبية وأطباء أجانب، ودواء ربما لم يصل إلى مستشفيات القطر .. جاء دورنا ذات صباح للقاء الطبيب الايرلندي الدكتور رايت .. كانت معه مترجمة عراقية. حضرت المقابلة وكنت أجيب عن بعض الأسئلة .. سألها الطبيب عن بدء شعورها بالمرض .. ثم سألها إن كانت قد عملت في منشأة ما تعرضت خلالها للأشعاع .. أجابت بالنفي طبعاً .. ثم تطرق به الحديث إلى استشهاد أخيها، وكيف تعاملت مع الحالة، شرحت له كل شيء .. كاد يجزم أن الأمر لا يعدو كونه صدمة عنيفة لم تستطع أن تمتصها فظهرت على شكل إصابتها بهذا المرض.

ذهبنا إلى الردهة في طابق آخر هو الوحيد .. خصص للأميرة سرير. كان العاملون في معظمهم من الأجانب .. أطباء وممرضين وممرضات .. حتى عمال النظافة والخدمات كانوا آسيويين من الهند والباكستان وبنغلاديش.

كانت الزيارة محددة بالأيام والساعات إلا أنني استطعت أن أنسق مع موظفي الاستعلامات،كنت أدخل في أي وقت حتى في الصباح.

طلب مني الدكتور رايت أن آتيه بملفة الأميرة حيث كانت راقدة في مستشفى مدينة الطب .. ذهبت إلى هناك صباحا بمفردي، صعدت إلى الطابق العاشر،كان أول من التقيته الدكتور عدنان .. لم أكد أعرفه .. كان شاحبا كأنه لم ينم منذ أيام .. ابتسمت، لكنه لم يبتسم، حاول أن يذهب..أمسكته .. قلت له..

- خير

لم يستطع أن يتمالك نفسه .. ألقى بنفسه في أحضاني، وانخرط في بكاء صامت أخذته جانبا إلى غرفة الممرضات .. جلسنا .. سحب منديلاً ورقيا .. مسح عينيه ..

- توفي رجاء ..

صعقت، لم اسأله كيف .. نزلت إلى الطابق الأرضي .. خرجت من المستشفى من غير أن آخذ الملفة .. ذهبت إلى البيت رأسا .. استقبلتني زوجتي، لاحظت ارتباكي .. صرخت ...قلت لها.. مات الرجاء ..

نون

ناداني صوتك في جوف الليل
فأسرعت
لكن هل يدرك من مثلي أسرار القلب ..
أسرار الليل
نار في القلب
ونور في الجرح
ملح في الجرح
في العين
وجرح في ذاكرة الموت
نار الجرح
نور يتلألأ
نم يا ولدي
نار.. نور ..
نار .. نور
نم يا ولدي
فقد ارتحت من هم الدنيا ..
وتركت لوالدك العنا ..

ظل المطر الأسود ينهمر بغزارة، لافتات سودا مكتوبة باللون الأصفر تغطي جدران البيوت ،والعمارات،وأسيجة المدارس والبنايات العامة والجسور والذاكرة المستباحة بألوان الحزن والقهر الدموي.يكتبون على اللافتة اسم الشهيد وأسماء أفراد عائلته من الذكور،إخوانا وأبناء، يركزون على ذكر الوظيفة لمن يشغلون وظائف مهمة في الدولة أوالجيش أو الحزب، بنوع من المباهاة.نسخ متعددة، تعلق عند منعطفات الشوارع والأزقة حتى تصل البيت كنوع من الدلالة، يذكر فيها تأريخ الاستشهاد ومكانه.وكان الحزبيون يجوبون الشوارع ليلا في دوريات منتظمة ليرفعوا اللافتات التي مضى عليها أكثر من أسبوع، حتى يفسحوا في المجال للافتات جدد تأخذ مكانها ،أو لأنهم يخافون على المدينة أن تصاب بالتلوث البصري!.وعندما ترفع لافتة ما تترك فراغا في الجدار، ما تلبث لافتة أخرى أن تملأه.

اكتست المدن باللون الأسود، واختفت الملابس ذات الألوان الزاهية من أزياء الفتيات والنساء. في المدارس والجامعات. صار الأسود زيا موحداً، حتى الشبان صارت القمصان السود أمرا شائعاً بينهم. الذين لم ينشهم المطر الأسود كانوا يلبسون الملابس السوداء جريا وراء الموضة السائدة.

نظرت إليهن .أربع أو خمس نسوة متسربلات بالأسود في تجمع حالك وسط ظلمة الليل ،وضعت كل واحدة منهن أمامها صندوقا،فوقه علب سكائر وقداحات وأمشاط سودودبابيس

وبطاريات ومقصات وأكياس صغيرة تحوي بهارات وفلفلا أسود من الشورجة، يجلسن مقرفصات أو مسترخيات،كثيرات هذه التجمعات في سقف السيل وقرب الجامع الحسيني .أراهن كل يوم وأنا في طريقي إلى العمل أو إلى السكن ،أشتري منهن أشياء لست بحاجة إليها،أماحكهن أحيانا،أفاصلهن في السعر ثم أعطيهن السعر الذي طلبنه حتى عرفنني،كنت أشتري منهن السكائر بالمفرد وأنا لا أدخن. أعطيها لزملائي في العمل ساعة تنفد سكائرهم حتى تجمع في درج مكتبي عدد من السكائر ومن مختلف الأنواع، بينها سكائر سومر التي يحبها الزملاء كثيرا.

توقفت عندهن ، دردشت مع أم فلاح ،أعادت علي حكاية ابنها الذي فقد في معركة الشوش ،أخذوه في الجيش الشعبي ولم يعد،البعض قال لها أخذوه أسيرا، لكن أحداً لم يسمع صوته في إذاعة إيران التي تذيع تسجيلات مع الأسرى كل يوم ولعدة مرات. أحدهم قال لها إنه سمعه بأذنه التي سيأكلها الدود ذات يوم، فلاح حسن سلمان، لكنها لم تصدق سألتني أكثر من مرة... إن كان هذا صحيحا. قلت لها أكثر من مرة الله اعلم، ربما كان هذا صحيحا كانت تقول لي :هه.. ألف فلاح حسن في العراق، لو أنى سمعته لعرفته من صوته، قلب الأم لا يخطي.. ثلاث سنوات وهي في عمان تبيع السكائر وأشياء أخرى، تأوي إلى غرفة مع مجموعتها وترسل ما تستطيع إلى أهلها. زوجها مات بعد أن فقد ابنه، وأولاد فلاح صغار، تزوجت أمهم بعد فقد أبيهم

بسنتين. الدولة اعتبرته مفقودا، وخصصت له راتبا ،توزع بين الأم والزوجة والأبناء.

واصلت سيري، مررت بشعبة سحب الدم، قلت للممرضة سونيا *totogeholen*.. فقالت لي: *totogeholen*، وضحكت.

– تتعلم اللغة الايرلندية القديمة بسرعة.

ثم دعتني إلى فنجان قهوة ..كانت في فترة استراحة،جلست .

– عندك أولاد غير الأميرة.

– نعم، لكن الأولاد عزيزون على القلب ،حتى لو كانوا عشرة..

– صحيح ،قالت، وكان في صوتها رنة أسى.أردفت بأدب:

– تستطيع أن تتمدد على السرير لآأخذ منك صفائح دموية للأميرة، هي محتاجة إليها، وجميل انك أتيت. .

تمددت على السرير، بسطت ذراعي، لم أحس بوخزة الإبرة في الوريد. رحت أراقب دمي ينساب إلى قنينة في الأسفل.. رأيت الصفائح الدموية، تنفرز عبر جهاز خاص لتتجمع في قنينة أخرى، ليعاد الدم إلى جسمي من جديد بعد أن أخذت منه الصفائح الدموية.

قالت لي :

– قرأت قصتك المترجمة إلى اللغة الإنكليزية في المجلة التي أخذتها منك.. لم تعجبني الترجمة .. لا بد أنك كنت تقول

أشياء جميلة بلغتك العربية. أتمنى أن أتعلم اللغة العربية.. هل هي صعبة التعلم؟

- بصعوبة الايرلندية القديمة.. ضحكت..

- الترجمة مسؤولية كبيرة.

- صحيح.

أعدت لي قدحا من عصير البرتقال ..وقالت مثل أم تداعب طفلها بحنو..انتهى كل شيء..

نزلت عن السرير .. قلت لها: شكرا

صعدت السلم الموصل إلى الردهة ببطء. كنت أشعر بتعب بسيط.. من باب الردهة واجهني سرير الأميرة شاغرا، أحسست بالفراغ يبتلعني .. تقدمت بخوف. قالت لي جارتها:

- ذهبت لتستحم.

تنفست الصعداء.. خرجت من الردهة لأنتظرها في الممر . لاحت لي من بعيد تلف شعرها بالمنشفة. بدت مثل عمامة هندية. ابتسمت .. نظرت إليها متوردة جميلة .. تمشي بهمة حين رأتني ابتسمت..

- متى جئت ؟

- قبل قليل .

- كيف أنت اليوم؟

- كما تراني.. الحمد لله.

كانت متفائلة، لأنها شجاعة وكنت خائفا لأني لدغت من قبل .

تمشينا نحو الردهة.. استلقت على سريرها ،سحبت الحواجز بينها وبين الأخريات .صرنا داخل غرفة زرقاء مستقلة .

- كم أتمنى لو لبست الثوب الأسود.

- الحزن بالقلب.

- هل ستطبخون الهريسة؟

- وتصلك حصتك حارة بالدهن الحر والدارسين.

أراحت رأسها على الوسادة ثم أسبلت عينيها، رأيت أنها راحت في إغفاءة قصيرة. اتكأت على حافة الكرسي.. كنت متعبا نوعا ما، لم أنم البارحة بشكل جيد.. كانت تتردد في سمعي أصوات صبية في الزقاق يرددون المراثي الحسينية التي سمعوها عن آبائهم وأمهاتهم الذين شهدوا تلك الطقوس في نهاية الستينات. قبل الهجرة الثانية حين كنا في العمارة كنا نعمل للأسعد والزين دشاديش سوداء في المحرم، وكانا يذهبان معي أحيانا إلى شارع بغداد ليشاهدا مهرجان الحزن السنوي أو كانا ينضمان إلى مواكب الصغار من أبناء الحارة الذين يدورون في الشارع وهم يرددون ما يحفظونه من المراثي الحزينة. كانوا يتعلمون أبجديات الحزن هم وأصدقاؤهم . النساء يشاركن أكثر من غيرهن في التعازي التي تقام في البيوت. تجتمع النسوة في أحد البيوت. تقوم الملاية بقراءة المراثي الحسينية بصوت رخيم يستدر دموع النسوة وهن يلطمن صدورهن.

كانت الأميرة في الثامنة تسهر حتى الصباح مع صديقتها التي تربت في حضنها، ليلى التي تسألني دائما عنها، يحدث هذا ليلة العاشر من محرم، حيث تجتمع الفتيات والنسوة الشابات في البيوت يؤدين طقوس الليلة العاشرة، يسهرن حتى الصباح بما يعرف بالحج، ويعني عدم النوم حتى الصبح وهو غير الحج بمعناه المعروف بشد الرحال إلى البيت الحرام، يطفن في الشوارع والأزقة تتقدمهن زعيمة شابة قوية سرحت شعرها بعد أن أغرقته بالدهن حتى غدا لاصقا، وبيدها جرس من البرونز، تقرعه وهي تردد.

حجة للصبح .. فتجيبها الفتيات .. ما نام

بعيوني ملح .. ما نام

ثم يتوقفن أمام البيوت واحدا واحداً يتسولن لا لحاجة مادية.. وإنما هو الطقس الذي يقول ذلك .. تنادي الزعيمة:

الله يخلي راعي البيت .. فتجيبها جوقة الفتيات آمين

بجاه الله واسماعين .. آمين

مجاميع كثيرة من الفتيات ينطلقن في الشوارع والأزقة، تتردد اهازيجهن في جوف الليل. بعيدة مثل أصداء .. وقريبة حتى مطلع الفجر.

الزين بدشداشته السوداء .. وصرته التي جمع بها بعض المأكولات والحلويات يحملها على ظهره، يدور بها في البيت، يروح ويجيء بين البيت والشارع صامدا حتى الثانية عشرة

على أكثر تقدير، ثم يسرقه النوم، يداعب جفنيه الكرى ثم يسبل رموشه الطويلة ويغفو، كما غفا في صندوقه الخشبي بشعره الأشقر مثل حقل الحنطة.

فتحت الأميرة عينيها .. ابتسمت.

– كنت تحدثني عن عاشوراء يا أبى .. عن ليلة (الحج)، سمعتك تتحدث عن ليلى وبنات الجيران، أنا أكاد أتذكرهن .. مجرد صور باهتة في الذاكرة، بنات صغيرات بشعور منفوشة .. هل كنت مثلهن يا أبي...

– لا .. أنت الأميرة ..

ابتسمت برضا.

– كنا نجتمع في بيت أم سهاد، حتى الصباح، لقد تحدثنا عن ذلك كثيرا، أنت حدثتنا وكذلك أمي غدت ابتسامتها عريضة، راحت تردد

ويله الويله

فرددت بعدها .. ويله

عمه فطيمه .. ويله

– لكنني لا أتذكر أنني سهرت حتى الصباح، كنت أنام في حضن ليلى.عندما أستيقظ أشعر بالحزن أني لا أحج . لكن ليلى تنفي أنني نمت . تقول لي .لم تنامي .. مجرد ثوان لا غير .. عندها أفرح .. أغادر حضنها أركض إلى الشارع، تنعشني برودة الهواء، فأعود ..

فجأة علتها مسحة من الحزن .. نظرت إلي بعينين قرأت فيهما رسالة اعتذار. أحسست بقلبي يتمزق . هذا الكائن الذي يتألم ويكابر ويحاول ألا يسبب لي أي أذى، أنا الذي أنزف منذ سنة وأكثر نزيفا متصلا، أكابر أنا الآخر المذبوح من الوريد حتى آخر قطرة من الشجاعة .. يا الله .. لماذا خلقتنا بمثل هذه العواطف .. آه لو كنا ممن خلقت، سوى هذا الإنسان الذي جعلته في أحسن تقويم .. قلت لها :

- ما بك أيتها الأميرة؟

- أعرف أنني أسبب لك كثيرا من الحزن والعناء .. كان الله في عونك يا أبى. لقد آلمتك وأنت لم تبرأ بعد من مصاب أخي.

- لا تقولي هذا يا أميرتي .. إنك تبالغين في تعذيبي .. أنا الذي لم أوفك حقك .. آه لو أن بالإمكان نقل المرض من واحد إلى آخر،هل تستطعين التنازل لي عن بعض ما بك أيتها الأميرة، فأنام أنا في سريرك هذا، وتقفين أنت عند رأسي كما كنت تفعلين عندما أمرض.

- لا .. لا .. يا أبى .. لا تقل هذا، فمن لنا بعدك .. تذكرت الآن .. جاءني الدكتور رايت صباحاً، وقال إن دواء جديداً جاءه من لندن .. وقد جربوه على كثير من الحالات، وثبتت فعاليته.

- خبر مفرح .. ولكن لماذا أخرته حتى الآن.

نظرت إليها وقد تعكر مزاجها..

- خير..

- لا شيء .. إنه يريد تعهدا خطيا منك!

- لماذا؟

- هو يقول هذا .. ربما كان للدواء مضاعفات خطيرة!

- هل هو موجود الآن؟

- لا أدري .. لكنه طلب حضورك صباحاً .. ماذا تقول؟

- لا إله إلا الله ..

سحبت خطواتي ببطء، نزلت السلم، ثم كنت خارج المستشفى .. أخذت سيارة أجرة إلى بيتي البعيد .. حين وصلت رأيت الجميع بانتظاري.

- ها .. قالت زوجتي .. لقد تأخرت.قرأت في عينيها قلقا وخوفا ترىهل استشعر قلبها عن بعد .. هل ذهبت مجساته بعيدا فالتقطت بعض ما حدث وما سيحدث، مثلما تشظى يوم سقط صاروخ كردمند قبل بعض العام وعام ..

- لا شيء .. قلت.

- كيف هي الأميرة؟

- الحمد لله ..

حاولت أنْ أبتسم، كان المساء قد بدأ يهبط .. مسائي الحزين دائما الذي ينزل مثل رماد .. تجمع بعض الصبية الصغار في الزقاق، كانوا يحاولون تمثيل شيء من طقوس الماضي الذي لم يعيشوه .. لكنهم سمعوا عنه من أمهاتهم وآبائهم، أشعلوا بعض

النيران الصغيرة وبعض الشموع وهم يرددون ما حفظوه من المراثي الحسينية .. كانت أصواتهم تصلني وأنا جالس أفكر في ما قالته الأميرة .. وفيما قال الدكتور رايت .. وهذا الدواء الذي سيجربه على الأميرة ويريد مني أن أوقع بالموافقة وأعفيه من كل مسؤولية ..

لم أقل لزوجتي عن هذا الدواء المفترض لأنني لم أرد أن أزرع فيها أملا قد لا تتجاوز نسبته عشرين بالمئة، كما لم أشأ أن أجعلها مثلي فريسة لحالة من التمزق مثلما أنا الآن .. وحين سألتني عن سبب وجومي وعدم رغبتي بالعشاء، أجبت أنها حالة نفسية أمر بها، لكنها وكما أيقنت عرفت أن شيئا ما يقلقني. وأن هذا الشيء يتعلق بالأميرة دون غيرها.

كان الجو حارا تلك الليلة، صعدنا إلى السطح، لكنني لم أستطع النوم.. نزلت إلى المكتبة ،تصفحت رفوف الكتب .. سحبت كتابا وجلست أقرأ.. سمعت خطوات تقترب من الباب .. رفعت رأسي .. كانت هي زوجتي، وقفت عند الباب ثم تقدمت.

- هل حصل شيء؟ لماذا لا تخبرني؟

- ابتسمت في وجهها مكرها ..

- لا .. لم يحصل شيء .. لا أشعر برغبة في النوم ..

حدقت في وجهي بإمعان ..

- الأميرة؟

لم أجد بدا من مصارحتها..

- ما بها؟

شرحت لها كل شيء .. وأن الدكتور رايت يطلبني غدا للتوقيع

كانت أكثر شجاعة مني .. ابتسمت وقالت:

- وماذا في ذلك.. أنا أعرف كل شيء ،لا تظنني جاهلة إلى هذا الحد. أنا كما أنت أمتلك إيمانا بالله، وما علينا إلا أن نمتثل لمشيئته تعالى، إن كان لها نصيب في الحياة فسيكتب لها الشفاء بهذا العقار او بغيره. و إلاّ.. لم تكمل، انخرطت ببكاء صامت .

- لا توقظي الأولاد في هدأة الليل ..

قالت من خلال نشيجها:

- إن لم توقع، سأوقع انا ..

واصلت طريقي عبر جادة الشابسوغ .. اخترتها دون غيرها لأنها أقل ارتفاعا، ومع ذلك كنت أنوء تحت حمولتي الفائقة من الهم وأنا أصعد .. أحاول أن أجعل خطواتي أكثرثباتا. حتى إذا تعبت جلست على الحافة الرخامية السوداء التي تخرج من إحدى المحال الكبيرة، رحت أنظر إلى السيارات والباصات التي تقف عند الإشارة الضوئية وإلى البعض الذين يقفون بانتظار الباصات أو سيارات السرفيس، تذكرت أن علي أن أذهب صباحا إلى المركز الصحي لأحصل على شهادة صحية تمكنني من تجديد إقامتي لثلاثة أشهر أخرى .. كما علي أن أتصل بالأهل لأعرف أخبارهم. هؤلاء الذين يركبون باصات النقل الحمراء والخضراء

والصفراء والبيضاء والذين يركبون سيارات الصالون الفارهة، والذين ينتظرون السرفيس..كلهم أو في معظمهم سيذهبون إلى بيوتهم، تستقبلهم أمهات وآباء، أو زوجات وبنات وأبناء وأحفاد.. يجدون لقمة نظيفة وثيابا مغسولة ومكانا لائقا يتحلقون حول موائد العشاء، يشاهدون التلفزيون،يتسامرون ويضحكون ويتشاجرون. أود أن أجلس في المطبخ، نتناول العشاء ونضحك،أو أتناول فطوري في الحديقة تحت أشجار التين والزيتون وعريشة العنب على المساحة الخضراء المزروعة بالثيل،متع صغيرة أجد نفسي محروما منها وأنا علي أن أعمل كل شيء بنفسي من إعداد لقمة الطعام حتى غسيل الملابس.

في الصباح ذهبت إلى بنك الدم، للحصول على أربعة أكياس من الدم بعد أن تبرع الجميع ولم أجد من يتبرع، أحضرت معي وعاء من الفلين يحفظ الدم باردا خلال رحلة الذهاب الى مستشفى ابن البيطار .. قبل أن أذهب إلى البنك خطر لي أن أعرج على مدينة الطب .. دخلت الاستعلامات، سلمت على الموظفين الموجوين، رحبوا بي، أودعتهم وعاء الفلين ثم صعدت الى الطابق العاشر، وأنا أفكر بلقائي بالدكتور رايت هذا اليوم ، كنت بحالة نفسية سيئة وأنا ممزق بين الموافقة وعدم الموافقة ، بين أن أوقع على تعهد أتحمل بموجبه موت ابنتي وأعفي الدكتور رايت من المسؤولية ، وبين الامتناع فأبدد فرصة العشرين بالمائة من يدي، هذه الفرصة التي أنا نفسي

قدرتها بهذه النسبة، وربما هي أقل من ذلك. لكنني قررت الذهاب إلى الدكتور رايت في كل الأحوال لأستفسر منه عن هذا العقار الجديد الذي جاه من لندن، ثم قررت أن أسأل الدكتور كمال رئيس شعبة أمراض الدم، فلابد أن يكون على علم بهذا العقار، ولابد ان يعرف الكثير عنه.

حين توقف المصعد في الطابق العاشر، فتح باب المصعد المجاور، وخرج الدكتور كمال بنفسه، تسرب إلى نفسي شيء من الفرح واعتبرت ذلك فألا حسناً. تقدمت منه، سلمت عليه. فتوقف الرجل وسألني عن الأميرة ،شرحت له الحالة وسألته عن هذا العقار الجديد الذي يريد الدكتور رايت تجربته عليها، سألني عن اسمه، ولم أكن أعرفه، فقال كثيرة هي العقاقير التي تردنا كل شهر من مختلف مختبرات الأدوية في العالم .. بعضها لم يجرب في بلدانهم، ويريدون تجربته عندنا .. ثم قال:

– الأمر متروك لك، ولا يستطع أحد إجبارك على أخذ عقار معين دون رغبتك.

استأذنني ودخل مكتبه. ذهبت إلى الردهة التي كانت الأميرة ترقد بها. رأيت عبدو،سلمت عليه بدا كأنه لم يعرفني، ثم اعتذر. سألته عن أمل عبدالحسين، فنظر في وجهي باستغراب ..

– البقية في حياتك يا أستاذ.

صعقت

– كما سمعت يا أستاذ .. انتحرت أمل قبل أسبوع، في يوم كهذا من الأسبوع الماضي، علقوا لافتة سوداء مكتوبة بالخط الأصفر عند المدخل، ثم رفعوها قبل أيام.

– كيف .. لماذا؟

– ألقت بنفسها من النافذة. ليست هذه النافذة، بل النافذة التي في الاستراحة .. يقولون إنها حالة نفسية .

– لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ثم بكيت ..في مستشفى ابن البيطار مررت بسونيا أولاً قلت لها *Good morning* .. قالت لي.. *Good morning* .. نظرت في وجهي .. قالت لي..

– هل نسيت الإيرلندية القديمة؟ وابتسمت..لكنني لم ابتسم.

– ما بك؟ أراك حزينا هذا اليوم.

سلمتها شحنة الدم المحفوظة في الوعاء الفليني .. فتحتها، كانت ما تزال باردة .. وضعتها على المنضدة.

شرحت لها طلب الدكتور رايت مقابلتي ،سألتها عن العقار الجديد ..

– أنا لا أعرف هذا العقارفأنا لست طبيبة،ابتسمت ثم قالت:

– لكنني لا أرى مشكلة في الموضوع .. هي محاولة، ربما تنجح .. وقالت بالعربية إن شاء الله .. وابتسمت . حملت الوعاء الفليني لتودعه في الثلاجة المخصصة لذلك. خرجت من

الغرفة، وتوجهت نحو الطابق الثاني .. سمعت باب المختبر يغلق، ثم سمعت خطوات سونيا على البلاط .. التفتت وقالت:

- حظا سعيدا..

أسبوع بكامله ونحن نعيش حالة لا مثيل لها من القلق والخوف .كان هناك أمل وكان هناك ايمان بقضاء الله وقدره. كنا نزور الأميرة صباحا، وكانت أمها تظل في الليل معها.صار الهاتف مثل نذير، خاصة إذا رن بعد منتصف الليل. يفعل ذلك بغباء مقصود،نهب جميعا،نركض اليه،وحين نرفع السماعة نواجه بالفراغ،أهي لعبة مقصودة من احد. اقترح الأسعد أن نرفع السماعة، لكنني اعترضت ،هب أن المقدور وقع واتصلت أمك فكان الخط مشغولا،فماذا تفعل ؟علينا أن نتحمل ذلك .

بدأ الدكتور رايت بإعطائها العلاج الجديد، شاهدته بنفسي سائلا أزرق يزرقها به كل يوم، بعد أربعة أيام عملوا لها خيمة بلاستيكية بداخلها مصباح أزرق قال لي الممرض العراقي :

- حدث لديها هبوط حاد في البوتاسيوم .. بسيطة إن شاء الله .. سيعوضها الطبيب عن هذا النقص .

جاء الدكتور رايت ، وأمر بنقل الأميرة إلى العناية المركزة .. رافقتها إلى هناك ،كانت ما تزال شجاعة .. لم تظهر عليها أية علامة من علامات الخوف .. قالت لي:

- اقرأ لي شيئا من القرآن .. أنا أحب تلاوتك .. أريد أن أسمع سورة الكهف ، أحبها كثيراً ..

قرأت لها السورة كاملة .. قالت لي:

- هل صحيح أن الإسكندر هو ذو القرنين؟

- الله أعلم يا أميرتي.

دخل الممرض العراقي .. حين رآني قال ..

- هذا أمر لا يصح يا أستاذ .. العناية المركزة تعني الراحة المركزة للمريض .. الرجاء الانتظار في الخارج ..

امتثلت لأمره وخرجت، ذهبت إلى البيت، تركت زوجتي مع الأميرة. كنا عشية العاشر من محرم.

وصلت السكن في جبل القلعة ،سمعت من الشباك في الطابق الثاني مراثي حسينية،العراقيون يحتفلون ضمن مهرجان الحزن السنوي في ديار الغربة،في كل مكان ، في أستراليا ونيوزيلندا والسويد والنرويج وكندا وأمريكا،شعرت بأنفاسي تتقطع وقد بلغت قمة المرتفع. لم يبق أمامي سوى الدرج بدرجاته الأربعين. أمسك الأنبوب الحديدي المثبت جانبا وأصعد.بلغت منتصفه، كان الشباب في البيت المنفتح على الدرج يعدون الهريسة، يسهرون حتى الصباح ليذهبوا إلى المزار الجنوبي في الكرك لزيارة مرقد جعفر الطيار وليحيوا مهرجان الحزن السنوي هناك مع المئات من غيرهم ،تناهت إلي أصوات صبية يرددون المراثي الحسينية، ثم خفتت الأصوات وساد الهدوء .نمنا لأستيقظ صباحاً،دخلت المكتبة وأغلقت الباب خلفي، جلست أستمع إلى عبدالزهرة

الكعبي يقرأ حكاية المقتل من إذاعة الشباب مثل كل عام. بكيت بحرقة، أحسست بالدموع تنهمر بغزارة ..

عند الثانية عشرة رن جرس الهاتف .. التلفون نفسه الذي عبر أسلاكه جاءني نبأ استشاهد الزين ذات أحد قائظ. كان الصوت لزوجتي. قالت لي.. أسرع..

كلمة واحدة،انطلقنا جميعا،أنا والأسعد والبنات .وصلناغرفة العناية المركزة.كانت زوجتي تقف هناك بثيابها السود، تبكي . عيناها قطعتا دم،وجهها قشرليمون.كان الباب موصدا ..انتظرنا.

– ها .. قلت ...

– ليس إلا رحمة الله

خرج الدكتور رايت ، نظرت إليه، بدا كأنه لم يعرفني ،لم يتكلم. رأيت فيه قاتلا يتحمل مسؤولية عمله، لكنني ،قلت لنفسي: أنا الذي وقعت..

خرج الممرض العراقي وأغلق الباب.

– لا تخافوا، أزمة بسيطة .. ستتجاوزها إن شاء الله.

– هل تستطيع أن نراها؟

– لا .. انتظروا بعض الوقت .. ثم دخل.

انتظرنا بعض الوقت ثم خرج ..

– تستطيعون أن تدخلوا،ولكن بهدوء رجاء، تعرفون أن المستشفى يضم العديد من المرضى بينهم مسؤول كبير في الدولة .. تذكروا ذلك.

كنت أول من دخل، لم تكن الأميرة التي أعرفها،كانت شيئا آخر،مجرد نفس يعلو ويهبط .وقع نظري على المصحف مفتوحا عند سورة يس،استغربت من الذي فتحه. بدأت أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم .يس والقرآن الحكيم،إنك لمن المرسلين.

حين أنهيت قراءتي .. فتحت عينيها وابتسمت، ثم أسبلت جفونها بهدوء تام ونامت.

دخل الممرض .. غطى وجهها بقماش أبيض، وقال:

- البقية في حياتكم..

صرخنا .. لطمت الأم. صرخ الممرض.

- بهدوء رجاء، مسؤول كبير في الدولة والحزب يرقد في الغرفة المجاورة..

دخلت غرفتي الصغيرة، تفحصتها كأني لم أرها من قبل، نظرت حالة الفوضى المستحكمة فيها، فراشي المهمل ومنضدة الكتابة التي جمعتها من الأشياء المهملة .. والسقف حيث تتدلى العناكب من خيوطها المنتشرة في الزوايا، لم أجد رغبة في العشاء أوالكتابةأوأي شيء، تمددت على السرير، رحت أبكي، أبكي كل شيء،وطني المشردون أبناؤه، الخارج من حربين دمويتين، المقسم على الخارطة ضمن مناطق الحظر الجوي.

كان الزين باستقبالنا عند الباب. يرتدي دشداشته البيضاء الناصعة يتلألأ جرحه من وراء الثوب، يفور دما دون أن تسقط

منه قطرة واحدة إلى الأرض، حدقت في وجهه طويلا، بدا لي شاحبا مهموما .. قلت له:

– مالك، يا ولدي؟

ابتسم وقال:

– أنتظر الأميرة منذ أيام .. لماذا تأخرت؟! أشعر بالوحدة، الغرفة واسعة وموحشة.

– أتمنى أن أكون أنا الذي ينام معك في هذه الغرفة.

– لا، قال .. إنهم بحاجة إليك جميعاً .. إبق معهم إلى أن يحقق الله وعده.لماذا أنت واقف يا أبي؟ .. تفضل أدخل ..

دخلناالغرفة،كان هناك قبرالزين،وشاهدة قبره تحمل تاريخ إستشهاده.أزاح الحفاربصديريه بلون التراب الارضية،حفر قبرا جديدا،صارا قبرين، لم يمض على سؤال أحد من أعرف:هل ستدفنون أحداً في الغرفة مع الشهيدإلا بضعة شهور.مرضت الأميرة قبل الذكرى الأولى لا ستشهاد الزين، في رمضان ذاك الذي ما زال في آيار للسنة الثانية.

من مستشفى إلى مستشفى ،عدد من الأطباء،حتى أعطاها الدكتور رايت ذاك العلاج الذي قال إنه أثبت فعاليته، قتلها بعلاجه ولم يسأله أحد لماذا؟ كيف؟أنا الذي أعطيت الموافقة. فهل أنا شريكه في الجريمة؟ كان بالإمكان نقلها إلى خارج العراق، كما أوفد ذلك البطر ومئات غيره إلى لندن كلنك وغيرها لعمل حشوة لأسنانه أوإجراءعملية تجميل لأنفه المعوج،ثلاثون

ألف دولار قال لي الدكتورراية كلفةعلاجها في لندن،أي عشـــرة آلاف دينارعراقي،كانت تحت يدي أو كنت أحصل عليها حتى لو بعت بيتي، ولكن كيف أحولها إلى دولارات ؟ كيف؟من أنا؟

وصلنا المقبرة بعد منتصف الليل .. كانت صامتة لأنها مقبرة، تأخذ بصمت ولا تعطي، بصمت أيضاً، لا تحتج عندما يعلو البكاء والنحيب والعويل واللطم حتى عنـــدما يتعـــالى لطـــم الصـــدور والوجوه.الحرب ما تزال تدور وهي في عامها السابع.

قمنا بالإجراءات اللازمة نفسها، الرجل نفسه الـــذي رأيتـــه عندما جئنا بالزين قبل أكثر من عام ،ربما يكون واحدا غيره .. لكن المنضدة الحديدية هي ذاتها لا شك. كان الرجل نائمـــا كمـــا يبدو،فالحرب في عامها السابع لم تعد تعمل بالهمة ذاتها التـــي كانت بها تعمل طوال السابقات من السنين .. لقد تعبت الحـــرب، فراحت تتمطى بعد أن شبعت بعد سبع عجـــاف أكلـــن الأخضـــر واليابس .. الحرب تشبع أيضا لكن تجار الحروب لا يشبعون.

قدمنا شهادة الوفاة وهوية الأحوال المدنيـــة، أنجـــز الرجـــل الإجراءات بعينين مغمضتين، ولم يقل البقية في حيـــاتكم، ولـــم ينظر إلينا، حين غادرنا التفت رأيته قد توارى على الأريكة خلف المنضدة الحديدية ونام ...

عمان- بغداد -عمّان

٢٠٠٠ —٢٠٠١

هذه الرواية

رواية تتناسل مع كربلائيات العراق حيث الأحزان التي لاحدود لها ، وكاتبها عاش أكثر ساعاتها وجعا وأطول أيامها هلعا ورعبا دون ان يتباهى بما جرى، بل تماهى مع آلامه حتى صار بعضا منها . رواية عن الانسان في محنته ، عن الظالم والظلام ، عن التأوهات الحبيسة ، عن الجوار والطغيان الذي لا أملك أمامه غير أن أكرر ثانية كان الله في عون مبدعها ، كيف أنه كتب زائية الوجد وكيف أنه عاشها .

عبد الستار ناصر

رواية متفجرة بالدراما والوجع مثلما هي اسطورة حياة جمعية قاومت الأبادة والقدرية في آن . تمكن القاص والروائي عبد عون الروضان عبرها من تسجيل تفاصيل المأساة الإنسانية وبشعرية عالية وصفت بالتفاصيل والأسطورة من أجل ايقاع محتدم مشحون بالحزن أمسك بالمتلقي حتى اللحظة الأخيرة .

ناجح المعموري

زائية الوجد (نص روائي) تداخل فيه الذاتي مع الموضوعي باتجاه منحى الوجد والبوح الصوفي الخالص والصافي عبر اتحاد الذات مع الذات الحميمة والقريبة . ذلك تجسد من خلال قدرة السارد على الأضمار والكشف في ما هو ماثل من تراجيديا الحرب . فالفاجعة لاتأخذ بسردياته الى فعل اماطة اللثام عما هو مباحة رؤيته بل يساير استجابة الجواني في توزيع الانعكاسات الرؤيوية لأظهار المتخفي من المشهد ونثره باقتصاد تام وبهذا تحققت صورة مثلى للمعادل الموضوعي .

جاسم عاصي

الفاجعة موضوع رواية (زائية الوجد) والموت بطل هذه الرواية . عبد عون الروضان يذكرنا بالحرب التي كدنا ننساها في تتالي الحروب .

زهير الجزائري